بهاء الدّين العاملي

التديّن والنفاق

بلسان القط والفأر

ترجمة وتحقيق : دلال عبّاس



RIAD EL - RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

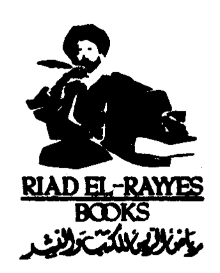
التدين والنفاق

بلسان القط والفأر

بهاء الدين العاملي

التديّن والنفاق
بلسان القط والفأر

ترجمة وتحقيق : دلال عبّاس



THE CAT & THE MOUSE

BY

BAHA' EL-DINE AL-AMILY

KNOWN AS

SHEIKH AL-BAHAI

TRANSLATED & EDITED

BY

DALAL ABBAS

First Published in Arabic Language in 1996
Original Manuscript in Persian

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 249 4

الطبعة الأولى: نيسان / أبريل ١٩٩٦

المحتويات

الدافع إلى كتابته(*)

لم يذكر الشيخ البهائي الدوافع التي حثّته على تأليف هذا الكتاب كعادته في كتبه الأخرى، ولكن دارس آثار الشيخ والمطّلع على منهجه الفكري، يستطيع أن يحدد مراميه وأهدافه من كتابة هذه الأقصوصة المثل:

الهدف الأول: له علاقة بمنهجية الشيخ البهائي أو ما أسميناه حين دراستنا لمؤلفاته وآثاره: «التجديد المنهجي».

ونعني بالتجديد المنهجي محاولة الشيخ تبسيط الأفكار وتيسير المعرفة للناس: الخاصة والعامة، العلماء والمبتدئون، كما فعلَ في كتابه «الجامع العباسي»، الذي يعدّ أول كتاب في الفقه الميسّر: كَتَبَه بفارسية بسيطة يفهمها المبتدئون والعوام، في وقت كانت فيه المعارف الفقهية مقتصرة على فئة قليلة من العلماء وطلبة العلم الذين يعرفون العربية؛ وكما فعل في كتاب «الصمدية في النحو» الذي وضعه للأحداث الذين يجدون صعوبة في فهم كتب النحو المعقّدة. وفي كتاب «خلاصة الحساب» الذي بسّط

(*) الكتاب مطبوع مع آثار البهائي الفارسية الأخرى التي جمعها وحققها الأستاذ سعيد نفيسي في مجلد واحد، وعنه نقل مهدي توحيدي پور وغلام حسين جواهري في طبعتيهما.

فيه المعارف الرياضية ووضّحها وشرحها، وأورد عمليات حسابية بطرق عديدة، منها ما هو خاص بالمبتدئين.

أما هذا الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، فقد توخّى صاحبه من ورائه تبسيط مذهبه الفكري وتقريبه من أذهان الناس، وأعني بمذهبه الفكري دعوته إلى التوفيق بين الشريعة والحقيقة الذي يلخصه ما جاء في مقدمة «نان وپنير» أو «الخبز والجبن»: «من تفقه ولم يتوصّف فقد تفَيقه، ومن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقّق».

وقد انتقد في شعره الفارسي، في مثنويات: «الخبز والجبن»، «الخبز والحلوى» و«الحليب والسكر»، اتباع الظاهر من رجال الدين الذين سمّاهم «علماء الرسوم» المنكرين للحكمة ولطائفها، الذين لا يميزون بين الرأي وبين الاجتهاد، والذين ينتقدون الحكمة وهم لا يعرفون ماهيتها، يقفون عند ظاهر الأحكام ولا ينفذون إلى بواطنها، كما انتقد أدعياء التصوف الذين غلّبوا الطريقة على الحقيقة.

هذا هو الهدف الأول والأساسي، أما الأهداف الأخرى، التي تتفرع كلها من هذا الهدف أو تصبّ فيه، فهي تتلخص في:

- الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا والتحذير من الإقبال عليها.
- الترغيب في العمل من أجل الحياة الأخرى وتعزيز الميل إليها.
- السخرية من العوام الذين يتعلّقون بالأوهام والخرافات، ويصدقون ما يسمعون دون أدنى تمحيص، ودون أن يُعملوا عقولهم..
- نقد واضعي الأحاديث ورواتها..
- نقد الحكام والقضاة ورجال البلاط:
- نقد مباشر للحكام ونصح لهم.
- نقد مباشر للقضاة الذين يستغلون منصبهم الديني لخداع الناس واستغلالهم، وهم الذين يُفترض أن يكونوا مؤتمنين على أرواح الناس وأموالهم.

- نقد رجال البلاط الذين يراؤون الحكّام ويخدعونهم، بدل أن يكونوا لهم ناصحين.
- نقد الوعّاظ الذين يقولون ما لا يفعلون: المشكلة الأزلية: مشكلة التناقض بين القول والفعل، أو الصراع بين الظاهر والباطن، بين الفكر وممارسته العملية..

وكما أن للقصة هدفاً أخلاقياً حدّده الشيخ البهائي[1] بقوله:

«أيها الأعزاء: لا تظنوا أن حوار الفأر والقط بلا جدوى! الفأر هو نفسكم الأمّارة بالسوء، التي تريد أن تتخلص بالحيلة والخداع من سلطة العقل، وأن تُفسد صاحبها باقتدائها بالشيطان، وبعد ذلك تسخر من العقل وتهزأ منه، وتضيّع عليه نعمة الاختيار الصحيح.
أيها الأصدقاء: كان القطّ بما يملك من صولة وشوكة قد سيطر على الفأر ووضعه في تصرفه، ولكنه بعد أن سمع من الفأر حديث الشّواء والحلوى لان وتراخى وقد أعمى الطمع بصيرته، فـخُدع وأفلت الفأر من يده؛ وأنت إن لم تفلت عنانك وتسلّمه إلى النفس الأمّارة فلن تتأخر في نيل مطلبك.

والمغزى من هذه الحكاية أن في كل لفظة عدة وجوه من النصيحة.. وفي كل حال، تعلّم نصيحة من قصّة القط والفأر، لتصل إلى حقيقة النفس الشهوانية، ولتدرك حقيقة الدنيا الفانية وأوضاعها المتردّية.. ستسمع أيضاً من الفأر والقط في كل باب أخباراً، وسترى مباحثات ومجالات كثيرة عن تصوف الفأر والقط، وفي النتيجة أخاف أن لا يتوصل ذوو الطّباع الناقصة والعقول القاصرة إلى المعاني التي تحتاج إلى كمال الإدراك والاستعداد، ويضيع تعبُ هذا الفقير سدى»[2].

---

(١) راجع الفصل الخاص بشعر البهائي الفارسي في كتاب: بهاء الدين العاملي: أديباً وفقيهاً وعالماً، للمؤلفة.
(٢) الهر والفأر، ص ٥٥ - ٥٦.

ويقول في مكان آخر:

... «بعد هذا ستسمع أن القط سيأخذ الفأر بالسياسة، وهذا يعني أن القوة المتخيلة، بدأت تتفوق على النفس الأمّارة مستعينة بالعقل الذي هو ربّ البيت».

الغاية أن ينظر القرّاء بكمال التدبّر والفكر لتشع في خواطرهم أنوار المعاني»[٣].

إنطلاقاً من هذه الأهداف نرى الكاتب يتحكم بالحوار فيوجهه الوجهة التي يريدها، وعندما يضع على لسان أبطاله موعظة فإنه يضعها مناسبة للموقف ومؤيدة له: ونرى أن كلاً من الشخصيتين الرئيسيتين ينطق بلسان المؤلف

القط: «طالب علم» أو متفيقه[٤]، لم يصل إلى مرحلة الاجتهاد، ومع ذلك يبيح لنفسه أن يقف واعظاً في أمور الدين والدنيا، يقول عن نفسه: إنه تعلّم بعض الكلمات في الأصول والفروع، فأصبح ماهراً في الدرس والبحث، مجملاً بالصلاح والاستقامة، وبخاصة لأنه يقول «ميو، ميو» بالتشديد والمد.

هو قليل المعرفة ومع ذلك فهو متعجرف مغرور، يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع، ينظر إلى الفأر نظرة تكبر وتعالٍ، يحتقره ويحقّر من شأنه لا يستخدم في مخاطبته سوى عبارات التحقير: «أيها السافل»، أيها الجاهل»، «أيها السافل الكذاب»، ما هذا النفاق»، «ما هذا الخداع»، «ماذا دهاك لتصاب بالخرس»..

إن صورته صورة القوي، الوصولي، الحقير: يتظاهر بالتواضع ليخدع الفأر حين يستعصي عليه فيقول له: «أيها الشيخ المبجّل»[٥] يستغل علمه ومعرفته

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٤) التعبير للشيخ البهائي من مثنوي «نان وپنير» «الخبز والجبن»: راجع شعر البهائي الفارسي»، في كتاب: بهاء الدين العاملي: أديباً وفقيهاً وعالماً.

(٥) موحش وكربة، ص ٥٨.

لخدمة هدفه وهو النيل من الفأر: والفأر بالنسبة إليه رمز الطعام: أي اللذة: عنوان الحياة الدنيا.

أما الفأر: فهو متصوف دعيّ، قليل العلم والمعرفة يحفظ بعض الآيات، وشيئاً قليلاً من أشعار المتصوفة وحكاياتهم، يقول إنه جاور قرب مزار الشيخ «سعدي الشيرازي»، أي أن المجاورة قرب «المقامات» كانت كافية في نظر متصوفة عصره، لادعاء الدروشة والتصوف: إنه نوع من التواكل الكسول.

كلٌ منهما يتبارى بذكر ما يعرف من أصول وفروع، وما سمع من حكايات وأشعار وأحاديث، وكل منهما لم يمكث في المدرسة سوى مدة قصيرة.

وإذا كان القطُ قوياً وصولياً، فإن الفأر جبان، متملق، منافق: يخاطب القط بقوله: «أيها العظيم الشأن»، «يا ذا المهابة والجلال»، «أيها السيد» «أيها الملك».

يخاطب القط بصيغة الجمع حين يريد أن يستعطفه، وبصيغة المفرد حين يريد أن ينتقده.

بينما نراه يغيّر أسلوبه في الكلام، وتتبدّل لهجته، عندما يصبح في مأمن من خطر القط فيقول له: «في الوقت الذي تنتقل فيه قدمك النجسة من هذا المكان يكون النصر حليفي»[٦].

ويقول في مكان آخر: «أيها القطّ القليل العقل، كيف أعطيك ما يكفيني شهراً، لتأكله أنت في يوم واحد؟».

ثم يعود إلى الاستكانة والخضوع عندما يقع في قبضة القط من جديد: «عبدك الفقير أنا»: إنه تملّق الضّعفاء..

ثم تتغير لهجته عندما ينفد صبرُ القطّ:

«أيها القط يجب أن تطلّق النهم وتتزوج القناعة، وبالتوكّل والقناعة تغادر إقليم الحزن والكآبة إلى السعادة والهناء»..

---

(٦) القط والفأر، ص ٧٧.

ويخلط المسكنة بالتهجّم المباشر وغير المباشر، يقول:

«لم يمر عليَّ طيلة عمري يوم كهذا اليوم. في أول النهار وقعت في براثنك. أنت الظالم، عديم المروءة، وفي آخر النهار أنا مرتاح آمن، وأنت على أعتابي تستجدي كرمي...».

وفي مكان آخر يقول: «أيها القط الجاهل.. إن المائدة التي تملأ رأسك في الطريق آتية إليك...».

أسلوب القط في الخطاب يسير على وتيرة واحدة، حتى حين ينافق الفأر ليستدرجه، يبدو أسلوبه واضحاً صارخ الألوان.

نقد الإخباريين من رجال الدين:

لقد انتقد الشيخ البهائي في شعره الفارسي رجال الدين أنصاف المتعلمين، الذين وقفوا عند ظاهر النص، وأعرضوا عما هو جوهر الإسلام، علمهم قليل، وقلوبهم خالية من العرفان، وادعاؤهم أكبر من علمهم، يستغلون منصبهم ومعرفتهم من أجل مآربهم الخاصة[7].

إن العالم الحقيقي في نظر البهائي هو الذي يجمع إلى علمه الزهد في الحياة الدنيا، لذلك فإنه ينتقد على لسان الفأر رجال الدين الذين لم يجمعوا الزهد والتصوف إلى علوم الدين:

يقول الفأر للهر: «إن الزهد والتصوف من خصائص المتدينين وأنا لا أرى ذلك فيك»[8].

هذا القول يذكرنا بقوله في الكشكول: «فسد الزمان وأهله وتصدّر للتدريس من قلّ علمه وكثر جهله، وانحطّت رتبة العلم وأصحابه، واندرست مراسمه بين طلابه»[9].

---

(٧) راجع «نان وحلوى «كليات شيخ بهائي»، ص ١٢٢ - ١٥٦.
(٨) القط والفأر، المصدر نفسه، ص ٤٥.
(٩) الكشكول، ط ١، علمي ج١ ص ٢٠٨.

ينتقد الذين يستغلون معارفهم من أجل أهوائهم، يقول القط حين يفكر بالطريقة التي تمكّنه من السيطرة على الفأر: «سأسيطر عليه وآخذه بالحجة مستنداً إلى الأدلة الشرعية، وإن لم يكن هذا ممكناً فسأورد أقوال المتصوفة وأقبض عليه»[١٠].

ولذلك فإن القط بعد الكثير من الوعظ يدّعي أنه ناسك متزهدٌ أَنِسَ بوحدته، واتخذ الصّبر مذهباً، فيقول له الفأر[١١]: أنت طالب علم، ولكن لِمَ لا تعمل بما تقول؟ «لم تقولون ما لا تفعلون»؟

وينتقد الفقهاء الإخباريين الذين يروون الأحاديث دون أن يتدبروا معانيها، ولا يعرفون إن كانت موثّقة أم موضوعة: هذا الموقف منسجم ولا ريب مع كون البهائي من أوائل العلماء الذين وضعوا أسس علم «دراية الأحاديث» في كتابيه «الحبل المتين» و«علم الدراية» الذي وضعه كمقدمة لكتاب «الحبل المتين»[١٢].

يقول الفأر مخاطباً القط: «إن الأحاديث التي تذكرها مروية فعلاً، ولكنها غير مقبولة عقلاً». وفي القصة التي يرويها القط ليرغّب الفأر بالضيافة يروي أحاديث عن الرسول تحثّ على الضيافة وإكرام الضيف، ويتزيّد فيضع قصصاً ينسبها إلى الرسول وهي تنضح كذباً ومبالغة.

موقف الشيخ البهائي من الإخباريين يلخصه قوله: «إن قدم الإستدلاليين خشبية، والقدم الخشبية قاسية، غير طيّعة»[١٣] وتبدو السخرية من واضعي الأحاديث ورواتها دون تبصّر أو دراية، أوضح وأعمق عندما يروي الفأر حديثاً نبوياً عن فضائل مشورة النساء، فيروي القط حديثاً يناقض الأول ويعارضه معنى ومبنى، ثم يروي كل منهما قصة مختلقة، موضوعة، تؤيد مدّعاه».

---

(١٠) القط والفأر، المصدر نفسه ص ٤٧.
(١١) المصدر نفسه ص ٥١.
(١٢) الحبل المتين، للشيخ البهائي (منشورات مكتبة بصيرتي).
(١٣) القط والفأر، المصدر نفسه ص ٨٤.

هذه القصص والروايات مما هو متداول بين العامة التي تؤمن بالمعجزات والخوارق، وتضعها في غير موضعها.

يقول الفأر: «إذا قلت إنني استخرت بالقرآن، لن يصدّقني، وإذا قلت استشرت العلماء سيقول: أن لا قيمة للاستخارة بغير القرآن، وسيقول: من أين جئت بالعلماء، لذلك سأقول له: «إنه قد ورد في الحديث»[١٤].

إن غرور القط وصلفه كناية عن غرور بعض المتعالمين، وترفعهم عن الناس، وقد انتقد الشيخ البهائي في شعره الفارسي أمثال هؤلاء...

يقول القط في هذا الكتاب: «إن من لا يحب طالب العلم لأدين له ولا إيمان، وكل من رفض العلماء رفض الأئمة والرسل، ورفض أوامر الله والكتب المنزّلة والملائكة والأحكام والثواب العقاب»[١٥]. هو لا يقول: «من لا يطيع طالب العلم كافر، ولكنه يقول: من لا يحب طالب العلم هو كافر: «لأن طلبة العلم يفاخرون بالشرع وببركة الآيات والأحاديث»..

وهو ينتقد أصحاب العلم الناقص: «أيها الفأر يجب أن تعاني الكثير من التعب والألم في خدمة علماء الدين لتعرف مسألة عقلية واحدة، وتتعلمها كي لا يعدّك الناس من الجهلة، قليلي الإدراك، لأن الذين أصبحوا علماء تعبوا كثيراً قبل الوصول إلى الطريق الصحيح».

السخرية في قوله إن مسألة عقلية واحدة ترفع صاحبها من مرتبة الجهّال إلى مرتبة العلماء... لذلك هو ينتقد الذين يلجأون إلى الجدل والبحث العقيم يقول: «إن بعض مدّعي العلم ما إن يحفظوا حديثاً أو آية حتى يلجأوا إلى الجدل والبحث العقيم في السوق والمدرسة والمسجد... هذا الأسلوب غير مستساغ لدى العلماء الحقيقيين»[١٦]...

ويقول: «على من أراد أن يصبح عالماً أن يترك العناد واللجاج ويأخذ جادة الإنصاف، ليتضح له الحق من الباطل والباطل من الحق»... وهو ينتقد

(١٤) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(١٥) المصدر نفسه ص ٨٢.
(١٦) المصدر نفسه ص ٨٩ وص ١٢٠.

العلماء الذين خانوا الأمانات التي وضعت في أعناقهم، والتي يُفترض أن يكونوا هم حماتها الحقيقيين..

ففي حوار القاضي وجارية التاجر، تبدو الجارية أكثر عفّة وأمانة ووفاء من القاضي الذي يفترض أن يكون حامي الشرع والمدافع عن حقوق الناس.

تخاطب الجارية القاضي قائلة له: «ما هي ميزة العالِم على الجاهل؟ أيعقل أن يكون العلماء كذّابين خونة؟»[١٧].

وفي قصة التركي الذي بكى عندما رأى لحية الواعظ، نقد للذين يتعبدون رياءً وقلوبهم خالية من التدين الحقيقي.

نقد المتصوفة:

يتساءل قارىء قصة «القط والفأر»، لماذا ينتقد الشيخ البهائي المتصوفة بهذه الحدّة، وهو الذي أنكر على الفقهاء بُعدهم عن التصوف والزهد حين قال: «من تفقه ولم يتصوف فقد تزندق»، ونحن نعرف أن الشيخ البهائي لم يكن رافضاً للتصوّف، وكان هو نفسه زاهداً في حياته، كما أن في شعره نفساً عرفانياً بيّناً كما أوضحنا في دراستنا لشعره الفارسي[١٨]، وقد أورد في الكشكول أحاديث كبار المتصوفة كابن عربي، والجُنيد، وسمنون المحبّ، وابن سهل الصّعلوكي الصوفي والشيخ سعيد أبي الخير وغيرهم، وهدفه من بعض الأحاديث الدفاع عن المتصوفة، والرد على الذين اتهموهم في عصره بالكفر ورموهم بالضلال[١٩].

لنفهم موقف الشيخ من أدعياء التصوف لا بد من العودة إلى دراسة ظروف العصر، التي حَدَتْ بالشيخ البهائي ذي التفكير الحرّ أن ينتقد أدعياء التصوّف الذين غلّبوا الطريقة على الحقيقة.. إن كتاب «القط والفأر» صدى لما آلت إليه حال المتصوفة في عصره...

لقد عاش البهائي في محيط كل ما فيه يشير إلى التطرّف، يعيش الحكماء

---

(١٧) المصدر نفسه ص ١٢٢.
(١٨) بهاء الدين العاملي: أديباً وفقيهاً وعالماً، الباب الرابع.
(١٩) المصدر نفسه، ص ٣١٨ ـ ٣١٩، والكشكول، ج ١ ص ٣٠.

والفقهاء والمحدّثون والدراويش والزهّاد والعبّاد والمتصوّفة إلى جانب آلاف المحتالين والمشعوذين والمستهترين، وبين الجميع قطيعة كاملة وعداء مستحكم، وانقسم الفلاسفة إلى مشّائين وإشراقيين، والفقهاء إلى مجتهدين وإخباريين، والمتصوفة إلى قُزَلباش[٢٠]، ونعمة اللهيين[٢١] وحيدريين[٢٢] ومشعوذين، وكل فرقة حاربت الأخرى قولاً وفعلاً وكل فرقة اتهمت الأخرى بالفسق أو الكفر أو النفاق. هذا بالإضافة إلى الإيمان بالتنجيم والخرافات والأوهام والسحر[٢٣].

حتى القُزَلباش الذين كانوا في بادىء الأمر متصوفة، وهم الذين قامت الدولة الصّفوية على أكتافهم بسبب نصرتهم للشاه إسماعيل، تحوّلوا بالتدريج إلى أشخاص لا همّ لهم سوى منافعهم الشخصية، والاهتمام بمصالحهم، ولم يبق من مظاهر التصوّف القديم سوى حلقات الذكر يقيمونها ليالي الجمع وفي الأعياد، وعلى الرغم من بعدهم عن الدين والتصوّف الحقيقي، ظل العامة متعلقين بهم وينظرون إليهم نظرة احترام وتقديس[٢٤]، وكثرت في هذا العصر المذاهب الباطلة والبدع، ولكل منها أتباع بين العامة كبدعة الجلاليين: أتباع رجل درويش من أنصار الشاه

---

(٢٠) القُزَلباش: أي الرؤوس الحمراء بالتركية، كانوا من التركمان الشيعة، ألبسهم الشاه إسماعيل الأول قبعة حمراء ذات اثنتي عشرة درزة ليتميزوا بها من غيرهم، ولكن هذا التاج فقد قيمته المعنوية بعد الشاه إسماعيل (عالم آراي عباسي ج١، ص ٢٩، وتشكيل شاهنشاهي صفوية ص ٥٢).

(٢١) النعمة اللاهيون: نسبة إلى السيد نعمة الله ولي الكرماني (توفي سنة ٨٣٤هـ - ١٤٣١م) من شعراء العصر التيموري، من كبار المتصوّفة، أغلب أشعاره في شرح مبادىء وحدة الوجود، وله شعر في التصوف والعرفان (فرهنگ فارسي، ج٦، ص ٢١٣٧).

(٢٢) الحيدريون: نسبة إلى قطب الدين حيدر من عرفاء إيران المعروفين (ت ٦١٨هـ - ١٢٢١م) فرهنگ فارسي ج٥، ص٤٧٠. وقد وقعت بين النعمة اللاهيين والحيدريين سنة ١٠٠٣هـ - ١٥٩٤م فتنة أريقت فيها الدماء الكثيرة: راجع مقدمة الكشكول تحقيق مهدي الخرسان، ص ٦٧.

(٢٣) زندگاني شاه عباس أول، نصر الله فلسفي، ج٢، ص ٣٠٩ و٣٢٢ و٣٤٢ و٣٤٤ و٣٤٥.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٨٩، وج ٢، ص ٣٤٣، وج ٣، ص ٤٨.

إسماعيل، ظهر في الأناضول وجمع حوله الأتباع، ولما قتله السلطان سليم العثماني فرّ هؤلاء إلى إيران وأخذوا ينسبون إلى صاحبهم المعجزات والخوارق، وقد كان عددهم في زمن الشاه عباس [عصر البهائي]، كبيراً[٢٥].

وبدعة النقطويين أتباع «محمد نامي» الذي سكن منذ عهد الشاه طهماسب أحد مساجد قزوين، وأطال لحيته متظاهراً بالتقى والتديّن، واشتهر أمره، والتفّ حوله الناس، وقد تعرضت هذه الدّعوة للتنكيل من قبل الشاه طهماسب الأول، ولكن اضطراب الأحوال السياسية بعده ساعد على ازدهار تلك الدعوة من جديد، لذا ما إن تولى الشاه عباس الحكم، واطّلع على تفشي خطر النقطويين حتى صمّم على التخلّص منهم، وقد دخل بنفسه إلى مقرهم حيث وجد السراديب السرّية مليئة بالخمور المعتّقة، وأدوات اللهو واللعب، فأمر بإلقاء القبض على رؤسائهم والفتك بأتباعهم[٢٦]...

ولم تكن المشكلة الأساسية في كثرة البدع بقدر ما كانت في تعلق العامة بهؤلاء الدعاة وتصديقهم لهم وتعلّقهم بهم...

حتى الشاه عباس (لأنه كان من سلالة المتصوفة)، كان في نظر العامة قدّيساً وولياً من أولياء الله. الشاه الديكتاتور، الذي ما كان أحدٌ من أعوانه يجرؤ على مخالفته، والذي سجن أباه وقتل أبناء عمومته، وأبناء اخوته، وولي عهده، والذي وصل به أمر الاستهانة بالدين، أن يأمر مرافقيه في زيارة كان يقوم بها لقساوسة أصفهان في شهر رمضان أن يحتسوا الخمر على كرهٍ منهم وأن يفطروا على محرم[٢٧]، كان العامة يقدّسونه ويعدّون كل ما يخرج من خوانه مباركاً، وفيه علاج لبعض الأمراض المستعصية،

---

(٢٥) أعيان الشيعة، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٢٦) زندگاني شاه عباس أول، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٣، وج ٣، ص ٤٨. وص ٥٢ و٥٣.

(٢٧) زندگان شاه عباس أول، ج ٢، ص ٢٩٠، وج ٣، ص ٦، وتاريخ فرهنگ إيران، ص ٢٤٣.

وكانوا يعتقدون أنه ملهم من الغيب، ويعلم المستقبل، وأنه صاحب كشف وكرامة، قادر أن يشفي المرضى ويفتح الأبواب والأقفال الموصدة؛ دعاؤه مستجاب والسعيد في الآخرة من يستطيع تقبيل لجام فرسه[٢٨]، وكان العامة قد نسبوا الخوارق والمعجزات إلى جده طهماسب وإلى جده الأول إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية، الذي يقول المؤرخون، إن هزيمته أمام العثمانيين كانت لطفاً من الله، (لأنه مع كل المفاسد الأخلاقية التي كان عليها، وكانت مخفية عن الناس، نسب إليه أتباعه ـ كعادة الصوفية بالنسبة إلى المرشد الأول ـ معجزات وخوارق لا تحصى، ولو لم يُهزم في معركة «جالدران» لعدّه الناس إماماً معصوماً)[٢٩]، وقد تحدث الناس بعد ذلك عن كرامات الشيخ البهائي ونسبوا إليه الخوارق والمعجزات[٣٠].

في هذا العصر المضطرب الذي خرج فيه الناس عن حدود الاعتدال، ترفّع البهائي عن التعصّب وانتقد أخطاء الجميع دون استثناء، انتقد في شعره العربي والفارسي المتشرّعين الذين يجترّون آراء السابقين، والذين استغلوا منصبهم الديني لخداع العوام، أو للتقرّب من السلاطين، وانتقد المتصوفة الذين غلّبوا الطريقة على الحقيقة، والعوامّ الذين يصدّقون كل ناعق. كما طغت نزعة التصوّف والعرفان على شعره الفارسي كلّه..

وخلاصة ما يذهب إليه أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى معرفة الحق إلاّ بالعزلة، بعيداً عن القال والقيل، وبعيداً عن الخلق المجازيين، ولكن العزلة لا تكون عزلة إلاّ إذا تلفّعت بزيّ الزهد، ولا يكون الزهد زهداً إلاّ إذا اقترن بالعلم الحقيقي الموصل إلى طريق الحق، المجبول بالخوف والخشية[٣١].

وينتقد أدعياء التصوف الذين يدّعون الزهد والتقوى من أجل العزّ والجاه، ويبيعون دينهم من أجل الخبز الحرام، ويعتمدون المكر والحيلة لتسخير

---

(٢٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٣ ـ ٣٦٤.

(٢٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٣، وتشكيل شاهنشاهي صفويه، ص ٦٤.

(٣٠) أعيان الشيعة، ص ٢٤٩ وروضات الجنات، ج ٧، ص ٥٦ ـ ٧٦، والكنى والألقاب، ج٢، ص ٤٠٢، ومستدرك الوسائل، ج٣، ص ٤٢٠.

(٣١) القصيدة الخامسة من مثنوى الخبز والحلوى، ترجمة نفيسي، ص ١٢٢.

العوام ولأكل مال السلاطين، يلبسون لباس الدراويش ويتظاهرون بأنهم من أهل السلوك، ولكن التقوى الحقيقية ليست بما يلبس الإنسان وإنما بما يعتقد، ولا يصل الساعي إلى الحق إلاّ إذا كان ظاهره كباطنه، أما إذا كان مخالفاً فجهنّم مأواه وبئس المصير[٣٢].

في «القط والفأر» يقول القط: «أيها الفأر إن من يعدّ نفسه من أهل الحقيقة يجب أن يبتعد عن دنس الدنيا ومنازع النفس الأمّارة والهوى، لأن أنفاس الدنيا الشيطانية وتجلياتها المتنوعة تخدع الناس كل ساعة بأسلوب، وكل لحظة بشكل مختلف، تنقلهم من حال إلى حال دون علم منهم أو معرفة... إن من يعد نفسه من أهل التحقيق يجب أن يبتعد عن الدنيا الخدّاعة، ويسلك مسلك الزهّاد، لتشعّ في ظلمات نفسه أنوار الحقيقة»[٣٣].

وهو يسخر من متصوفة عصره الذين غلّبوا الطريقة على الحقيقة: يقول الفأر: «أنا ماهر في التصوف إلى درجة عالية، فإذا استطاع شخص أن يدور دورة واحدة، فأنا أستطيع أن أدور ثلاثين أو أربعين دورة»[٣٤].

فيجيب القط: «ألا تعلم من التصوف سوى الدوران؟ إن القفز والدوران والسّماع والكذب، ليس من العقل والكرامة، وإنما هو طفولة وحماقة»[٣٥].

السخرية من المتصوفة تأتي هنا على لسان الفأر: «أنا أيضاً من أهل التصوف، وهذه الفرقة لا تقصّر في أكل «نعمة الله»... وهم في أثناء السلوك والاعتكاف لا يأكلون سوى الخبز والشعير والخل، وأحياناً لا يأكلون شيئاً، أما إذا كانوا في ضيافة فإنهم يأكلون إلى الحد الذي تبقى فيه بطونهم ملأى إلى اليوم التالي»[٣٦].

---

(٣٢) القصيدة الحادية عشرة من مثنوى الخبز والحلوى، ص ١٢٨.

(٣٣) القط والفأر، ص٧٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٨٠.

ينتقد الشيخ البهائي إدعاءات المتصوفة أن بإمكان الواحد منهم أن ينتقل من مكان إلى مكان، من تركستان إلى العراق مثلاً بخطوة واحدة... وإن مشايخ خراسان تنبت أشجار الفستق فوق قبورهم، ومشايخ العراق يستخدمون الماء مكان الزيت في قناديلهم[٣٧]... إلى آخر هذه الخرافات التي لا يقبلها عقل أو منطق.

يقول القط: «إن ما ذكرته أيها الفأر من كرامات أدعياء التصوّف محض خرافة»[٣٨] ويقول: «إن الناس الذين يؤمنون بهذه الكرامات جهلة ولا عقل لهم»[٣٩].

والصوفي الحقيقي في نظره: ليس ذلك الذي يمارس ديناً خاصاً قائماً على الشعوذة، يقول كلاماً لا يؤيده عقل ولا نقل، وإنما هو مبني على التقليد وهوى النفس وخداع الشيطان[٤٠]، إنه أثرُ الشراب والترياق، الذي يشعر الجاهل بسببه بجذبةٍ يشمئز منها العلماء العقلاء، مَثَلُ أولئك المجذوبين كمثل رجلٍ في بحر عميق بعيد القرار، وهوَ بلا يدين ولا رجلين ولا يعرف السباحة، فهو إما سيغرق حتماً، أو سيكون طعاماً للتماسيح وبهائم البحر، إن أدعياء التصوف أولئك ألقوا بأنفسهم في بحر الفكر العميق والخيال البعيد، دون أن يستعينوا بسفينة الشريعة، أو قارب الحقيقة، وبدون ملاّح العلم والربّان المرشد، وهم يجهلون السباحة، فوقعوا فريسة تمساح الشيطان، في دوّامة بحر البطلان، وإبليس يغريهم ليضلّهم كل آن، بأسلوب وطريقة مختلفين إلى أن يصلوا إلى درجة يظنون أنهم نجوْا من البحر العميق وتخلّصوا من الدوامة، واصطادوا من الأعماق جوهراً برّاقاً... إن كل من اتبع هوى النفس وأهواءها، واتبع الشيطان مستحق للعقاب[٤١].

---

(٣٧) المصدر نفسه ص ٨١ ـ ٨٢.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٤١) المصدر نفسه، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

وهو كذلك ينتقد المريدين الحمقى الذين يصدّقون ادّعاءات المشايخ، ويقولون إن كلام المرشد ليس أقل قيمة من كلام عيسى، وإن دعاءه مستجاب، إلى آخر هذه التخرّصات والحماقات التي ينتقدها بشدة وقسوة: في حكاية الشيخ الخراساني ومريده مجد الدين، وحكاية مريدي أحد المشايخ الذين أكلوا الرّوث وامتدحوه... الخ.

يقول: «ما إن يصدّق أحد الناس أقوال أدعياء التصوف، ويدخل في سلكهم، حتى يُبتلى بشطحاتهم وأكاذيبهم وخرافاتهم، ويصبح أسير الظن والوهم، لأن من المعلوم أن الأحمق، الجاهل، الأعمى، قليل الذوق والإحساس، لن تجلوَ الأسرارُ الإلهية صدأ عقله وشعوره، فإن كثيراً من الأشخاص، يحيون الليالي في السّهر والاعتكاف، لا يحصّلون أكثر من الهم والغم والنحول واصفرار الوجه، ومع ذلك لا يُعدّون من أهل الله، وذلك لأنهم غافلون منذ البدء عن حقيقة التصوف، واعتقادهم لا يخلو من الخداع وحب الدنيا، أما الآخرون الذين يعرفون سرّ الوجود، فيستطيعون ـ حين يجعلون قائدهم الحقيقي ومرشدهم الأول الإخلاص لله تعالى والتقوى وصحّة المعتقد ـ الوصول إلى أعتاب الحقيقة»[٤٢].

إن المعرفة النظرية بأصول التصوف لا تكفي: «ما هي فائدة معرفتك أموراً عن التصوف، إن لم تصل أنت إلى مرتبة الكمال والوصال، وتنكشف أمامك الحجب»[٤٣].

نصائح موجّهة إلى الحكام:

لقد سلك الشيخ البهائي في حياته في إيران مسلكاً مختلفاً عن مسلك معاصريه من العلماء الذين كانت لهم منزلة كمنزلته أو أقل منها، ممّن بالغوا في مظاهر التعظيم لأنفسهم وكانوا لا يخرجون إلاّ في مواكب شبيهة بمواكب الملوك[٤٤]، أما هو فكان يجوس أحياء الفقراء، ويدخل

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(٤٤) أعيان الشيعة، ج ٧، ص ١٤٥، نماذج لمثل هؤلاء العلماء.

أكواخهم ويجالسهم ويطّلع على أحوالهم، ويُروى أن الشاه عباس استحسن أن يلفته بلياقة إلى أن هذه الزيارات لا تتناسب مع مكانة شيخ الإسلام، فقال له يوماً:

«سمعت أن أحد كبار العلماء يكون مع الفقراء والأراذل في أكواخهم وهذا أمر غير لائق، فأجابه الشيخ: هذا الأمر غير صحيح، فأنا كثيراً ما أكون في تلك الأماكن ولم يحدث أن رأيت أحداً من كبار العلماء هناك[(٤٥)]. لعله بمسلكه هذا أثبت عملياً أنه لا يستسيغ مظاهر الترف التي كان معاصروه يحيطون أنفسهم بها، إضافة إلى أنه قد أعطى بمسلكه درساً للشاه الحاكم فسار على خطاه وتروي الكتب التي أرّخت للشاه عباس، أن الشاه نفسه صار يخرج إلى الأسواق والأحياء الشعبية للاطلاع على أوضاع الرعية، فيعمد إلى تخفيف الضرائب عن كواهلها، ويجوس الأسواق متنكراً يشتري من الباعة ليتأكد أنهم لا يطفّفون المكاييل ولا يتلاعبون بالأسعار، وكان يلجأ إلى الشدة والقسوة في محاسبة المرتشين والغشّاشين، ولطالما تنكّر وزار القرى البعيدة يسأل الرّعية عن ولاتهم فإن وجد أنهم يسلكون مسلك الرّشاد، أبقاهم في مناصبهم وإلاّ عزلهم ونكّل بهم[(٤٦)].

لقد انتقد الشيخ البهائي في «القط والفأر» الحكام ونصح لهم في قصة الملك الذي طمع بالفتاة العاقلة وفي قصره العديد من الحريم، وأعطى في القصة نفسها صورة للحاكم العادل نقيض الأول، وكيفية إجرائه للأحكام، وقصة السلطان محمود [الغزنوي] واطلاعه على أحوال الرّعية وكيفية تعرفه إلى حسن ميمندي الذي أصبح وزيره في ما بعد.

وقصة الملك الأحمق الذي أرسل مملوكه الهندي إلى بلاد الهند ليشتري له بضاعة، فاستغل المملوك الفرصة وبقي في وطنه...

يقول الشيخ: «إن الملوك هم مقياس عصمة الناس»[(٤٧)] أما قصة «المنديل

---

(٤٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٣٦، ومستدرك الوسائل، ج٣، ص ٤٤٠.

(٤٦) زندگاني شاه عباس أول، ج ٢، ص ٣٦٨ وما بعدها.

(٤٧) القط والفأر، المصدر نفسه ص ٧٤.

الوهمي» ففيها نقد لأعوان الملوك ولأهل البلاط المخادعين المرائين.

الوعظ:

أما الوعظ في القصة فإنه غير مباشر، من طريق التمثيل، والتشبيه أو بالاستناد إلى قصة تؤيد الموعظة:

فهو في دعوته إلى الوسطية: يقسم الناس إلى فرق ثلاث: «إن جماعة لا همّ لهم سوى الحياة الدنيا وجمع المال والمنال... وجماعة انصرفوا إلى العمل من أجل الآخرة، ونفضوا أيديهم من الدنيا، وهم ليل نهار يتأسفون من سوء أفعالهم ولا يفكرون إلاّ في الحياة الثانية، وجدوا الخلاص في الابتعاد عن الناس وفي الاعتكاف في زوايا النسيان».

إن الشخص الذي يختار العزلة، ويقفل على نفسه الأبواب محروم ويائس من جميع الكمالات، وقد قال الرسول(ﷺ): «خير الأمور أوسطها»، أي أن الإلحاف في طلب الدنيا نهاية الغفلة، كما أن ترك الدنيا والعزلة غير جائز، من الأفضل أن يكون السعي في الشؤون الدنيوية معتدلاً بقدر الإمكان: ومن الأفضل أن يترك الإنسان الطمع والشهوة طوعاً واختياراً، وليس بالابتعاد والانقطاع: كيف يتمكن من لم يتذوق الشهد، ولم يشاهد الجمال، أن يدرك صفات الخالق، مَثَلُهُ كمثل ذلك الذي ظن أن «الفالوذج» هو «الحمّام»، ثم يلجأ إلى رواية هذه القصة والتمثيل بها ليؤيد رأيه[٤٨].

وهو عندما ينتقد تعلق العامة بالخرافات وسهولة تصديقهم لادعاءات الحمقى والجهال والمرائين يمثل لذلك بقصة «الثعلب المحتال الذي ادّعى أنه حاج»[٤٩].

وقد وردت في سياق النص الكثير من النصائح والحكم على لسان القط أو على لسان الفأر:

---

(٤٨) القط والفأر، ص ١١١ - ١١٣.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٨٩.

«إن طلب السخاء والكرم من الفقراء ظلم وجور ومن صاحب المال ديانة».

«طلب الإنصاف وحسن المعاملة والتواضع إلى الضعيف كمن يلبس الصوف ويوقد النار ليدفع عنه الحر، أو كمن يخفف الثياب ولا يوقد النار في أيام «القر»، «تعليم الجهال ووعظهم كربط عقد من اللآلىء في رقبة الحمار». «العلم محكُّ الوقار... وغباء المتعلمين لا يقلل من كمال أهل العلم». «إذا عرض الجواهري بضاعته ولم يعرف الأوباش قيمتها الحقيقية، فإن ذلك لا يعيب اللآلىء ولا ينقص من قيمة الجوهر»...

«إذا كان القلب أسود فالوعظ لا يجدي لانّ المسمار لا يخترق الحجر الصوّان».

اللافت في موقف الشيخ البهائي حسن رأيه بالمرأة، وهذا الأمر مرتبط تاريخياً بموقف كبار العلماء من تعليم بناتهم ونسائهم كالحديث عن ابنة الشهيد الثاني «العاقلة العالمة»، والحديث عن زوجة الشيخ البهائي نفسه «العاقلة العالمة»... الخ.

في قصة الأميرة وابن عمها والربّان والملك: يكرر أكثر من مرة قوله: «إنها عاقلة عالمة»، وكونها كذلك استطاعت أن تتخلص من المآزق التي وقعت فيها... وهي لأنها عاقلة عالمة وضعها في كفة، مقابل النساء الأربعين فجعلها تقودهن بحكمتها وتعقّلها...

وفي قصة القاضي وجارية التاجر: جعل الجارية أكثر عفّة ووفاء من القاضي!

في الأسلوب:

يتحكم الشيخ البهائي بحوار البطلين فيوجّه حديثهما الوجهة التي يريد، وليس الاستطراد إلى قصص وأمثال من خارج الحوار سوى بهدف تأييد آراء البطلين الرئيسيين وأقوالهما. إن كل القصص الثانوية تخدم هدف القصة الأساسي وهو الترفع عن الصغائر والدنايا والطّمع، وعدم الركون

إلى الخرافة والخنوع، ووجوب الاعتماد على العقل لأنه مدارُ الأمور كلها.. وهو يعتمد أسلوب الوصف والقصص والتمثيل لإيصال فكرته: «أيها الفأر، الدنيا دار فناء، وأهل الدنيا جهلة غافلون، مثلهم كمثل أناس جهّال سافروا بلا زاد ولا راحلة ولا رفقة، في بيداء شاسعة شائكة وعرة، بعيدة عن العالم المسكون، وفي أعقابهم لصوص مجرمون، وقطّاع طرق محتالون.. وأمامهم بئر عميقة القرار، وهم لشدّة غفلتهم لا يلتفتون وراءهم ولا ينظرون حواليهم، إلى أن قبض عليهم اللصوص، وجرّدوهم من ثيابهم ومما يحملون»[٥٠].

ويقول في مكان آخر:

«مثل أولئك المجذوبين كمثل رجل في بحر عميق، بعيد القرار، وهو بلا يدين ولا رجلين ولا يعرف السّباحة، فهو إما سيغرق حتماً، أو سيكون طعاماً للتماسيح وبهائم البحر... إن أدعياء التصوف أولئك، قد ألقوا بأنفسهم في بحر التفكير العميق والخيال البعيد، بدون سفينة الشّرع، أو قارب الحقيقة، وبدون ملاّح العلم والربّان المرشد، وهم يجهلون السّباحة، فوقعوا فريسة تمساح الشيطان، في دوّامة بحر البطلان، والشيطان يغريهم كل آن بأسلوب، إلى أن يصلوا إلى مرحلة يظنون فيها أنهم نجوا من البحر العميق، وتخلّصوا من الدوّامة، واصطادوا من الأعماق جوهراً برّاقاً..»[٥١].

ويقول:

«كل شيء صحيح إذ وضع في مكانه الصحيح، أما إذا وُضع في غير محله، فإنه قمة الحماقة والجهل، إن طلب السخاء والكرم من الفقراء ظلم وجور ومن صاحب المال ديانة... كمن يلبس الصوف ويوقد النار ليدفع عنه الحر، أو كمن يخفف الثياب ولا يوقد ناراً في أيام البرد»[٥٢].

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٥١) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
(٥٢) المصدر نفسه ص ٤٦.

«... بذور الحنظل لن تثمر جوهراً، وإنما تلك الثمرة المرة نفسها حتى وإن بذرها الملائكة وسقاها جبريل»[٥٣].

يترك الكاتب الحوار يأخذ مجراه، ولكنه من خلال السياق ينتقل من الحوار إلى أسلوب السّرد للتوضيح وللرّبط.

بعد حوار القط والفأر يتدخّل الراوي فيقول: «وبما أن القط يعلم مسبقاً دناءة الفأر وشدة مكره، وأنه يسعى للنّفاذ بجلده، وبما أن غايته هو الإمساك بالفأر لذلك قال»[٥٤]:

«عندما سمع إبليس كلامِ ابنه البكر نهض وقبّل جبينه وقال له: «أنت الأرشد والأذكى...»[٥٥].

ويقول:

«ستسمع من الفأر والقط في كل باب أخباراً...»[٥٦].

أو ترى أحد البطلين يروي قصة ليشبه ما جرى لأبطالها بحاله والقط.

يقول الفأر:

«لو أن الملك لم يطمع بتلك الفتاة... لما ذاق كل هذا العذاب. وأنت أيها القط ما وقع لك لا يقلّ سوءاً عن هذه القضيّة، وذلك أنك أفلتني من يدك دون سبب وجيه، ثم وقفت حيران مضطرباً، لا تملك القدرة على التقدم ولا على التراجع، وألمك يزداد ساعة بعد ساعة»[٥٧].

أو يقول له في مكان آخر:

«لو لم تطمع بالحساء والقورمة، ولم تفلتني من يدك لما عانيت

---

(٥٣) المصدر نفسه.
(٥٤) المصدر نفسه ص ٣٧.
(٥٥) المصدر نفسه ص ٤٤.
(٥٦) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٥٧) المصدر نفسه ص ٦٧.

الانتظار...»، فيقول القط: «إيه من تقلب الزمان وغدره، وقلة عقلي، فقد صيّرتني غفلتي أسيراً لك»[٥٨].

اعتماد التشبيه التمثيلي يكثر في سياق النص:

«إذا بذر الملائكة بذور الحنظل في موسم الزرع، واستخدموا أجنحتهم بدل المعاول، وإذا هبّت عليها نسائم الأرواح، وسقيت بماء الحياة، وكان الساقي جبرائيل نفسه، فإنها لن تحمل في النتيجة جوهراً، وإنما حملها هو تلك الثمرة المرة نفسها»[٥٩].

في وصف الحديقة والبستان[٦٠] على لسان البومة صور جميلة: «كان ساكنو البستان يتحدثون كالعلماء الذين لا عمل لهم»، يقول الرمان:

«أنا الرمّان، وزهري يشبه هيئتي، لوني لون النار وجوفي مليءٌ بالياقوت».

فتجيبه الصفصافة:

«أيها الرمان، لا تكن مدّعياً، فأنت غاطس من الرأس إلى القدم في دم القلب، الصحيح أن أفتخر أنا في هذا البستان على الأصدقاء...».

تقول البومة:

«في الحديقة رأيت وردة حمراء تتكيء على سرير من الزّمرد، تضع أقراطاً ثمينة من قطرات الندى، وتحت قدميها بساط من الزّبرجد الأخضر، نثرت عليه جواهر متنوعة الألوان، ورأيت وردة صفراء كأنها ذهب صاغته يدُ صانعٍ ماهر، ورأيت سنبلة تشبه جدائل الجميلات، التي عَلِقت كل شَعرة منها بقلوب عدد من العشّاق المغرمين، ورأيت السّوسَن والنرجس وقد أضافا إلى جمال الحديقة

---

(٥٨) المصدر نفسه ص ٦٣ و٧١.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٩ ـ ٥٠.

جمالاً، وكان في تلك الحديقة قصرٌ، احترق قلب كيوان غَيْرة منه وحسداً...».

يعتمد البديع اللفظي والمعنوي في وصفه للأشجار، معتمداً على الجناس بين كلمتي جنار (الدلب) وآنار (الرمان)، فالكلمة الأولى جه نار = تعني الدلب وتعني أي رمان، وكذلك الجناس في قوله بيدم (أنا الصفصافة) و(بيدم: بي دم) أي بدون دم وتُرنج ونارنج، فلفظة رنج معناها ألم وتورنج: أنت ألم، ونارنج = غير مؤلم.

القط والفأر



في النص الفارسي المطبوع، تبدأ القصة على النحو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله الطيبين الطّاهرين، يقول محمد المشتهر ببهاء الدين العاملي:

● زعموا أن فأراً أبيض حادّ الذكاء، اعتكف في إحدى زوايا جحره يفكّر بقلّة ما يملك من زاد، وإذا بهرّ قد ظهر فجأة على باب الجحر، فانكمش الفأر على نفسه، ونظر بطرف عينه، وهو يصعّد الآهات الحرّى.

بجلبة تحرّك القط وقال بغضب: أيها اللص السافل، لِمَ تأوّهت وماذا دهاك؟ هل نالك مني ما يمنعك من تحيّتي؟

أجاب الفأر: أيها الملك المعظّم، والسيد المبجّل: سؤالك طريف، ولكنني عاجز عن الإجابة، لأن من المستحيل أن يتمكن الإنسان من تحيّة ملك الموت حين يراه.

إمتعظ القط من هذا الجواب وقال: أيها السّافل! متى ظلمتك؟ وأين أصابك مني الأذى لتجيبني بمثل هذا القول؟

ما أعرفه، هو أن «السلام» من السلامة، وأن التحية سنّة[1]، وردُّها واجب، فإذا أنت حييّتني تكون قد نفَّذت أمر السنّة، وألقيت على عاتقي واجب الرد، لأنه لا ثالث بيننا... وهكذا يصبح الرد «فرض كفاية»[2] عليَّ وتتحول القضية لصالحك، لأن للمبادر في إلقاء التحية ثواباً عظيماً، وأنا أحب أن يكون الثواب لك، وقد ورد في الحديث الشريف، أن رجلاً اختبأ في مكان على طريق النبي ليفاجئه بالتحية ويكونَ له الأجر والثواب، فنزل جبريل وأعلم الرسول بنيَّة الرجل، كي لا يتحقق مرامه.

أرأيت أيها الفأر: إن تحيتك لا تنفعني ولا تضرّني.

أجاب الفأر: لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، ولا طاقة لنا بما يفوق قدرتنا!

قال القط: نعم، صدقت.

وبكل ما يملك الفأر من حيلة ومكر، أردف يقول:

«أيها العظيم الشأن، ذو المهابة والجلال: أقسمُ أن كلاماً كثيراً يجول في خاطري، ولكنني لا أملك جرأة التعبير، فما إن وقع نظري على جمالك ومهابتك حتى خارت قواي، وغشيت عيناي، وصُمَّت أذناي، وعُقِدَ لساني، وانهارت قدرتي، ثم إن القدرة على

(١) السنة: المقصود سنّة النبي: قوله وفعله.

(٢) فرض كفاية: تعبير فقهي.

الإصغاء والكلام لا تتيسّر في كل حين، وأما حين تأمرون فإن علينا التنفيذ، حتى وإن كان الأمر مما لا طاقة لنا به».

قال القط بعد ذلك: أيها الفأر، بما أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾(*) فقد أردت أن أسلك معك سلوك الأخوة.

قال الفأر: أكرر وأعيد ما قلته لكم! إن قوة الحكّام وعظمتهم، مصدر خوف الأتباع وهَلَعِهم، كيف يمكن للعبد الخائف أن يجيب عن سؤال طرحه عليه سيّده؟

قال القط: هدّىء من روعك، ولا تخف، وصرّح بما يجول في خاطرك.

قال الفأر: يا إلهي إن آية ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ صحيحة، لكن أحداً لم يسمع آية تقول: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ جبراً وقهراً، والأخوَّة قسمان: الأخوَّة الحقيقية و«أخوَّة الطّريقة»[٣].

وبما أنني لا أستطيع أن أكون ندّاً وأخاً لمن هو أقوى مني، فكيف أقبل المؤاخاة؟ إن هذا التكليف مثله كمثل الصّقر يطلب إلى العصفور أن يطير معه، أو كمثل الأسد يطلب إلى الثعلب أن يبارزه.

يقيناً أن ما أوردت من أخبار، مرويّة فعلاً، ولكنها غير مقبولة عقلاً[٤].

أعذرني الآن أيها الملك، واسمح لي (أنا عبدك الفقير)، أن أدخل

(٣) **الطريقة**: أو الطريق يشمل التجربة الصوفية بكاملها... ولكل طريقة منهجها وثوابتها. سواء في ما يتعلق بالمريدين وعلاقتهم ببعضهم، وعلاقتهم بالشيخ (المرشد)، أو بالمراحل نفسها للطريق إلى الله.

(٤) لقد انتقد الشيخ البهائي في كتاب **الحبل المتين** وكتاب **الأربعين حديثاً** الأحاديث والأخبار التي لا يقبلها العقل.

(*) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات، الآية ٤.

إلى بيتي، فإن ذلك سيكون منتهى الكرم والإحسان منكم تجاه المستضعفين في الأرض، لأن لي في البيت أطفالاً صغاراً، عيونهم إلى الطريق شاخصة بانتظار عودتي سأذهب لأتفقدهم، ثم أعود ثانية.

أجاب القط: أيها الفأر! أحضر لزيارتك فلا تستقبلني كما ينبغي، وتتركني في الخارج، وفوق ذلك تدخل إلى بيتك ولا تخرج منه، ثم تخاطبني من الداخل، أنَّ هذا ليس من الأخوة في شيء!

تعالَ أنت معي الآن إلى منزلي لترى كيف أقوم بحق ضيافتك.

اضطرب الفأر، لأنه يعلم أنه إذا أطاع القط في ما يطلبه إليه فإن على روحه السلام، لذلك بُهت، وأسقِطَ في يده، وفقد القدرة على النطق، إلى أن قال أخيراً:

أيها الملك! إنني لم أدعُكَ إلى الداخل، لأن جسدك المبارك قويّ، وعتبة بيتي ضيّقة جداً، لذلك فإن مجرد الاقتراح يُعدّ وقاحة مني. ثم أسرّ في نفسه: إنني إذا ما استعنت الآن بالحيلة والمكر، أستطيع النجاة من براثن هذا الظالم، وإلاّ فلن يكون الخلاص ممكناً بعد. ثم رفع رأسه وقال للهر: أيها السيد! لم أكن أتصور أنك على هذا القدرِ من اللطف والرحمة تجاه المستخدمين والأتباع المساكين.

أما الآن وقد أدركتُ مدى رحمتك وعفوك وحبّك، فإنني سأذهب وأحضر فرشاً ونقلاً، وطبقين من الحلوى والفاكهة، أقدمها لسيادتكم، تعويضاً من سوء التصرف والخجل والشعور بالإثم.

إن لم تكن الروح فداء قدم الحبيب

فإنني سوف أرميها بعيداً

كي لا تظل عبئاً يُثقل جسدي

وبما أن القط يعلم مسبقاً دناءَة الفأر وشدّة مكره، وأنه إنما يسعى للنفاذ بجلده، وبما أن غايته هو الإمساك بالفأر بأي وسيلة لذلك قال:

أيها الفأر! أنا أعرف صداقتك ومحبتك، ولا ضرورة للتعب والضيافة والنقل والحلوى، إن مجرد الحديث معك غنيمة ومكسب لا يعوّض، هيّا نتحادث فنذهب عن أنفسنا الهمّ والحزن.

قال الفأر: أيها الملك! كنت قد ذكرتُ لكم أن أطفالي ينتظرون عودتي، سأذهب إلى المنزل أتفقدهم، ثم أعود، شرط أن أكون شفيعكم يوم القيامة.

قال القط: أيها المحتال ما هذا النّفاق؟ أيّ شفاعة تعني؟

قال الفأر: جاء في «گلستان» الشيخ سعدي[٥] شعر يقول:

سمعتُ أن الكريمَ يوم الحشر

يشفع للأشقياء بحسنة الأتقياء

قال القط: أيها الشقي: من أين يُعلم خيرُك ويُعلم شرّي؟

قال الفأر: أيها الملك: أنت ظالمٌ وأنا مظلوم.

قال القط: أيها الجاهل: أنت لا تعرف شيئاً عن أحوال يوم القيامة وأهواله، إذا كنت تريد أن تعلم فأنا أشرح لك.

قال الفأر: تفضّل أوضح وأوجز.

---

(٥) الشيخ سعدي الشيرازي: أحد أهم المبدعين في الأدب الفارسي شعراً ونثراً، ولد في أوائل القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي)، في شيراز إلى الغرب من وسط إيران اليوم، ثم انتقل إلى بغداد للدرس والتحصيل، ثم جاب بلاد الله الواسعة شرقاً وغرباً في غيبة طالت نحو ثلاثين سنة عاد بعدها إلى شيراز ليقيم فيها مكرماً حتى وفاته: أهم آثاره الأدبية بوستان شعراً، وگلستان أو روضة الورد شعراً ونثراً.

قال القط: قرأت في الكتب المعتبرة أنه عند قيام الساعة، ينفخ إسرافيل في الصّور، ويرجع الأموات من الجنّ والإنس إلى الحياة، وتُفتح أبواب السماء، ويختلط عالي النجوم بسافِلِها بحكم آية: ﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت﴾[٦] وتبسط الأرض وما عليها، ويصطف الملائكة والإنس والجن صفاً صفّا، وبأمر الله عزّ وجلّ ينتصب محرابٌ من نور يصلّي فيه ملائكة السموات السّبع والأرضين، ويقف الخلق جميعاً يومَ الحشر حاسري الرؤوس في وهج الشمس الحارقة، فتؤثر الشمس في كل إنسان على قدر طاقته على التحمل...

وأما من امتلأ قلبه إيماناً، فإن حرارة الشمس لا تؤثر فيه أبداً.

وتضطرب أحوال الخلق جميعاً من الوحشة والخوف والحيرة، وأولهم آدم صفي الله يصرخ في النفير، ونوح ينوح على الخلق، وعيسى بن مريم يرفع إلى الله دعاء «يا مالك الملك والملوك»، وزكريا يناجي ربّه بدعاء «يا سامع المناجاة»، ويعقوب يقف عاجزاً أمام عقوبة الخلق، ويحزن يوسف أسفاً على عَبَدَة «هرمز»[٧]، ويذرو سليمان عرشه وبساطه للريح، ويسمع الجميع هذا النداء آتياً من عالم الغيب:

لا يأملنَّ أحدٌ بالشفاعة قبل أن ينال رضى الله عزَّ وجلّ.. وعندما تأزف ساعة الحساب، يُساق الكفار والمنافقون إلى جهنّم دون حساب، ويرِدُ المؤمنون الجنة دون عقاب، وعُصاة الأمّة يُحملون إلى رضوان بشافعة محمد(ﷺ) وعلي وآلهم(ع).

(٦) القرآن الكريم، سورة الانفطار، الآية ١ ـ ٢.
(٧) هرمز: هُرمز إله الإيرانيين (أهورا مزدا)، أو أنه يعني «هرمس» أحد آلهة الأساطير اليونانية.

وأنت أيها الفأر: كيف ستشفع لي في ذلك اليوم؟

قال الفأر: أسألُ الله جلَّ كرمُه أن يسامحني على هفواتي، وأن يجازيك على سوء فعلِك.

قال القط: أيها السافل: أنت لا تتوانى، عندما تؤاتيك الفرصة، وتدخل منزل الأرملة الفقيرة، أن تسحق القليل من القمح الذي تكون هي قد جمعته قوتاً لها ومؤونة، ولا يهدأ لك بالٌ إنْ لم تلتهم آخر حبة منه.

قال الفأر: قرأت في كتاب «نگارستان»[٨] هذه الحكاية:

«إن عيّاراً ظالماً، سيّىء السيرة. ملحداً، كان عملَه الوحيد قطعُ الطرقات على المسافرين والمارة من تجار وغيرهم.. وقد تساءل الناسُ بعد موتِه عن مصيره يوم القيامة، وشاء التقدير الإلهي أن يراه أحد الصالحين في حلمه، مرتاحاً سعيداً، فسأله الرجل الصالح:

ـ أيها الرجل! ألستَ أنتَ قاطعُ الطريق الذي كان يؤذي الناس؟

قال العيّار: بلى.

قال الصالح: أريد أن أعرف كيف وصلت إلى هذه المرتبة؟

قال العيّار: كان كرمُ الله أوسعَ من معصيتي، فشملني بعفوه.

قال الصالح: بالله عليك، أخبرني عن سبب هذا العفو.

قال العيّار: كنت مرة خارجاً من وكري لأتفقد وكلائي، فرأيت

(٨) نكارستان، كتاب تاريخ باللغة الفارسية، صاحبه القاضي أحمد الغفاري القزويني، يشتمل على ثلاثمئة حكاية تاريخية ونيّف، انتهى صاحبه من تأليفه سنة ٩٥٩هـ. ق وقدمه إلى الشاه طهماسب الصفوي، هذا الكتاب مترجم إلى التركية، وقد أعيد طبعه مراراً في تركيا والهند وطهران.

على قارعة الطريق طفلاً يبكي، سألته عن سبب بكائه، فقال: إن أبي ملأ وعاءً شراباً لأحمله إلى أحد خلاّنه، وفي عرض الطريق، زلّت قدمي، فوقع الوعاء وكُسِر وأريق ما فيه، وأنا أخاف عقاب أبي حين يعلم..

عندما سمعتُ كلامَ الصبي، حملته وأخذته إلى مقري، وفتشت عن وعاء يشبه الذي كان يحمل، وملأته له بالعصير، لينجوَ من عقابِ أبيه، وبثواب هذا العمل أحسن الله إليَّ وسامحني...

وهكذا أيها القط: إذا كان صحيحاً ما ذكرته، ولك علم يوم الحساب، لماذا لا تكفّ عن الظلم؟ أنا مؤمن بيوم القيامة وأريد أن أثبّت إيماني، أما أنت! فيجب أن ترتدع عن الأذية.

قال القط: اسمع أيها الفأر، لا تنسب إليَّ السوءَ والظلم، فأنا لست ظالماً، وإنما الظالم أنت، وسأوضح لك الآن حقيقتك وحقيقة ظلمك: إسمع هذه الحكاية:

ـ إعلم أيها الفأر أنني كنت منذ مدة قريبة في حجرة «طالب علم» في إحدى المدارس، وكان في هذه الحجرة عدد لا يُحصى من الفئران، وأنت تعلم أن حجرة طالب العلم لا يوجد فيها سوى الورق والجلد وبعض اللّباد والحصير، وقد هجمت الفئران المفطورة على التعدي والظلم، على كتب الطالب وأوراقه فمزّقتها شرّ ممزّق، وسحبت الريشة من الدواة على العمامة فأفسدتها، ومزّقت لبّاد الحجرة...

ظل طالب العلم عاجزاً عن مقاومة الفئران، إلى أن دخلتُ أنا حجرته، وأمسكت الفئران واحداً إثر واحد وقضيت عليها فسُرَّ الطالب كثيراً ووهبني ما تبقّى من طعامه، وظل يكرمني وأنا أسعى في قتل الفئران، أجازيهم على ما فعلت أياديهم، إلى أن ولّت الفئة

القليلة المتبقيّة منهم هاربة، وعندما عاين طالبُ العلم همّتي، دعاني إليه، ووضع يده على رأسي ومسّد شعري، ومسح على وجهي قائلا: يا سنّور الخير المقدّم! مرحباً بك مرحباً، أمكث عندي!

وصار كل يوم يعلّمني كيف أحافظ على نظافة جسدي ونظافة بيته، كذلك علّمني بعض الكلمات في الأصول والفروع[٩]، ألا ترى أننا نحن القطرة نقول (ميوّ، ميو) بالتشديد والمد، وحفظت إلى ذلك الكثير من المسائل الشرعية، وأنا الآن ماهر في الدرس والبحث، ومجمّل بالصّلاح والاستقامة، وأوقنُ أن معاقبة أمثالك عبادة.

قال الفأر: من أين أتيت بهذه الفتوى؟

قال القط: من السنّة... وقد جاء في الحَديث: «أن المؤذي يقتل شرعاً».

والمعلوم أن آدم أعزّ المخلوقات وأكرمهم، وإذا كان قتلُ الإنسان المؤذي واجباً، فإن قتلك أوجبُ، أنت من تكون؟ وما هي قيمة حياتك أو أثر مماتك؟

قال الفأر: أيها القط: إذا كنت أنت طالبَ علم، أنا أيضاً مكثت في المدرسة مدة، ولا أجهل الأمور الشرعية، كما أنني كنت منذ سنوات خَلَتْ مجاوراً في مقام «الشيخ سعدي» عليه الرحمة، وصرت متصوفاً، ولي في علم التصوف مهارة تامة.

قال القط: حسناً، لقد أعطيتنا[١٠] صورة عن حالتك.

---

(٩) الأصول والفروع: مصطلحان فقهيان.

(١٠) الملاحظ أن الهر يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع (ما= نحن)، أما الفأر فإنه يخاطبه تارة بصيغة الجمع، وتارة بصيغة المفرد.

قال الفأر: نعم.

قال القط: إذاً لماذا لا تترك، وأنت البصير الفهيم، أكل المال الحرام، وغصبَ حقوق الناس؟

قال الفأر: ألم تسمع أن ربَّ العالمين يعفو عن خطايا الناس كلِّها؟ كنت مرة قرب حائط المسجد، فسمعت واعظاً يقول: إن ربَّ العالمين يغفر للتائبين من عبيده.

قال القط: كأنك لم تسمع أننا نحن أيضاً من مخلوقات ربِّ العالمين، إحكِ لنسمعَ موعظتك ونرى إذا كانت صحيحة أم لا.
قال الفأر: إستمع قليلاً لأحكي لك ما سمعت.

ـ «سمعت أن شخصاً، قدِمَ إلى حضرة الرسول الكريم(ﷺ) وقال له:

ـ يا رسول الله: كنت قد اقترفت معصية، وقد تبتُ إلى الله عزّ وجلّ، أيغفر لي؟

أجاب الرسول(ﷺ): بلى، إن الله ربَّ العالمين ستارُ العيوبِ غفّار الذنوب.

قال الرجل: يا رسول الله، من الصعب أن يغفر الله تعالى ذنبي!

قال الرسول: أسفكت دماً؟

قال الرجل: أفظع من ذلك!

«أنا رجل نبّاش، أعمل في سرقة الأكفان، وقد حدث أن ماتت شابة من عِليةِ القوم، وبما أنني كنت على يقين أن كفنها سيكون من أجود أنواع الأقمشة، ذهبت في الليل لسرقته، فأغراني

الشيطان بها... في تلك الساعة عينها رنّ في أذني صوت يقول: أيها الفاسق الفاجر أنا كنت طاهرة فنجّستني، فليجازيك الله تعالى.

لما سمع النبي(ﷺ) كلام الرجل، قال له: ابتعد أيها الملعون!

خرج النبّاش من المدينة نحو الصحراء، وهنالك اعتزل وظلّ يبكي ويتضرّع أربعين[11] يوماً وليلة، ويناجي ربه قائلاً:

[يا رب]! كل إنسان وَجَد على أعتابك ملاذاً، ورسولك طردني من أعتابك، وبعد الليالي والأيام الأربعين، نزل جبرائيل على النبي الكريم وقال له: «إن الله يُهديك السلام ويقول: نحن جعلناك وسيلة العفو والمغفرة، لماذا أيأست هذا الرجل من رحمتنا؟ إن كل من يتوجه نحو أعتابنا تائباً نعفو عن خطاياه»!

أيها القط: أنا تبتُ غسى أن يغفر لي الله.

قال القط: أيها الفأر، سمعتَ كلاماً، ولكنك لم تسمعه صحيحاً ولا تاماً.

قال الفأر: أيها الملك، تكرّم وأوضح لأسمعَ وأتعلّم.

قال القط: «عندما نزلت آية «التوبة»، غفر الله ربّ العالمين، ذنب سارق الأكفان، وكان إبليس حاضراً، حين نزول تلك الآية على الرسول(ﷺ)، فاضطرب وبكى، وتوجّه إلى قِمة جبل عالٍ، وهناك رفع يديه الاثنتين، ونادى بأعلى صوته، فحضر أولاده جميعاً، ولما رأوه شديد الاضطراب سألوه عن سبب حزنه، فقال لهم:

ـ يا أبنائي: مصيبة لا توصف قد حلّت بنا؛

أنا ـ منذ ذلك الوقت الذي طُردت فيه من الحضرة القدسية لأنني

(١١) إشارة إلى المدة التي يقضيها المتصوف معتكفاً (سخرية).

رفضت السجود لآدم قد عقدت على وسطي حزام العداء لآدم ولأبنائه، وقرّرت أن أسعى ليل نهار في خداعهم، وأقسمت أن لا أترك واحداً منهم ينفّذ أوامر الله ونواهيه فيذهب إلى الجنة، إنما أضِلُّهم جميعاً وأرمي بهم في جهنم.

والآن أرسل ربُّ العالمين «آية التوبة» إلى رسوله(ﷺ)، وكل من يتوب عن ذنب اقترفه، يقبل الله توبته ويعفو عنه، وهكذا سيصبح سعيي باطلاً، ولا أعلم ما هو التدبير الذي يجب أن ألجأ إليه...

أورد كل واحد من أبناء إبليس اللعين، أوجهاً وأعذاراً، لم يقبلها أبوهم، إلى أن نهض «خَنّاس» ابنه الأكبر فجأة وقال:

«أيها الأب المعظّم، بما أن خداع أبناء آدم وتضليلهم بأيدينا، فلنزيّن لهم المعاصي والآثام، ونبعدهم من طريق التوبة، إلى أن يأتي أجلُهم فيغادروا الدنيا بلا توبة».

عندما سمع إبليس كلام ابنه البكر، نهض وقبّل جبينه، وقال له: من بين أبنائي جميعاً، أنت الأرشد والأنبه.

ـ وإذاً أيها الفأر: إن لم يكن الشيطان قد أضلّك فلمَ تعلن توبتك أمامي؟

قال الفأر: أيها الملك أنت أطلعتني على أمور كثيرة أما «خواجة حافظ»[١٢] عليه الرحمة، فقد قال في ديوانه كلاماً جميلاً، حسن

(١٢) خواجة حافظ: الشاعر الغنائي حافظ الشيرازي، ولد في شيراز ٧٢٦هـ ـ ١٣٢٦م، حين كانت تابعة للإلخانات المغول، وكانت تُعطى إقطاعاً للأمراء أو للولاة، فكثُر تعاقب الحكّام عليها، واضطربت أحوالها وأحوال فارس كلها... ولقد ولد حافظ في أسرة غنية، ولكن أباه توفي وكان أصغر اخوته الثلاثة، فعانى الشقاء والفقر في حياته الأولى.. ويعد حافظ واحداً من أكبر شعراء إيران العرفانيين كان الناس ولا يزالون يتفاءلون بديوانه إذا أقدموا على أمر جلل.

أن يعمل الإنسان بفحواه إذا فهمه جيداً.

قال القط: أنا أنقل كلام القرآن الكريم، وأذكر لك الأحاديث النبوية الشريفة، وأنت تورد كلام حافظ وأقواله؟

قال الفأر: أنت لا تذكر لي المعنى الحقيقي، وإنما في غزل «حافظ» كلام حول التوبة واللاتوبة.

قال القط: صرّح أكثر ليتوضّح مرادك.

قال الفأر: أيها الملك: أنا صائم وقراءة الغزل تبطل الصوم، وأخاف أن يكون الملل قد تسرّب إلى خاطرك الشريف، ومع هذا فأنا أقول:

الوعّاظ الذين يقولون ما يُسرُّ في المحراب وعلى المنبر

إذا خلوا إلى أنفسهم عملوا عملاً مخالفاً

لديَّ مشكلة، وأريد أن أسأل علماء المجالس

لماذا يأمرون بالتوبة، وهم أنفسهم نادراً ما يتوبون؟

قال القط: أولاً أنا لم أقترف معصية، وإن كنت قد عصيت، كيف عرفت أنت معصيتي، لتدلّني وترشدني إلى طريق التوبة؟

قال الفأر: أنا في نظرك أحقر من أن أقدم لك النصيحة، ولكن لا بد من النصيحة عندما يظهر وجوبها، لأن الأمر بالمعروف فريضة، لذلك أقول لك: إن التصوّف والزهد من خصائص المتدينين والفقهاء، وأنا لا أرى ذلك فيك.

قال القط: أيها السافل! كل شيء صحيح إذا وُضع في مكانه الصحيح، أمّ إذا وُضع في غير محلّه، فإن ذلك هو قمّة الحماقة

والجهل، إنّ طلب السخاء والكرم من الفقراء ظلم وجور، ومن صاحب المال ديانة، وأما طلبك الإنصاف وحسن المعاملة والإخلاص والتواضع إليّ فهو كمن يلبس صوفاً ويوقد ناراً ليدفع عنه الحر، أو كمن يخفف الثياب ولا يوقد ناراً في أيام القرّ، أو: كمن يطلب ظل الحور في الشتاء، وفي الهاجرة يقف تحت الشمس.

قال الفأر: أيها الملك، إن التعلم، في هذه المناسبة، شديد الأهمية ألم تسمع ما قيل:

لا ضرر من شدة الاضطراب في الحديقة

طالما أن عبير الورود يتضوع عالياً

ـ أيها الملك: إذا سمحتم الآن لهذا العبد الفقير، البعيد عن عائلته، أن يعود إلى بيته، فهذا منتهى السخاء، وإذا رحمتم ضعفي وقلة حيلتي، وأخليتم سبيلي، فهذه هي المروءة!

ـ أيها الملك! إذا راجعتَ نفسك ستقول: إن هذا الفأر المسكين، لم يأكل من مائدتي خبزاً، ولم يشرب من إبريقي ماء، وستمتنع حينذلك عن الإضرار بي، وتنفض يدك مني، وهذا هو الإنصاف عينه، وأنت تعلم أن الدنيا دار الجزاء، وأن كل من يعتدي على المساكين الضعفاء، مصيره أن يقع في قبضة من هو أقوى منه وأظلم، وعند ذلك لن ينفعه التماس أو استعطاف:

إنّ الله الذي خلق السماءَ والأرضين

مقتدرٌ، ومع ذلك خلق الأتباع المطيعين

وقد قال الشيخ سعدي في «گلستان»:

القط أسدٌ حين يقبض على الفأر

ولكنه فأرٌ في حضرة الأسد

أنت سعيد أنني وقعتُ اليوم في يدك، ولكنك لا تتخيل ولا يخطر ببالك أنك ستقع يوماً في قبضة من هو أقوى منك، وأنك لن تفلت، مهما استكنت واستعطفت، ألا تخاف يوماً تلتقي فيه الثعلب الذي سيقوم بدور الأسد، وتقع أنت في براثنه عاجزاً مسكيناً؟

ـ لما سمع القطّ هذا الكلام، قال في نفسه: إذا أظهرتُ حدة، فهذا بعيد من العقل، وأخاف أن يُفلت الفأر من يدي، فأندم لات ساعة مندم، وبما أنه يتوسّل الحيلة والمكر ليفلت مني بمعسول الكلام، فيمكنني أن أخدعه أيضاً بالأدلة والأمثال، وأتصرف بحيطة وحذر، وإن لم أستطع ترويضه، فلا هو صوفي ولا أنا طالب علم، سأسيطر عليه بالحجّة، مستنداً إلى الأدلة الشرعية، وإن لم يفدني هذا فسأورد أقوال المتصوفة وأقبضُ عليه.. ثم إن القط قرّر أولاً أن يتواضع ويعظ نفسه.

قال الفأر: أيها الملك! أرى أنك لا تزال مفكراً في ما قلت لك، لماذا لا تجيبني؟

قال القط: إن ما تعتقده يجول في خاطري، ولكن يبدو أنك تسيء الظن بمقاصدي، وفهمت من كلامي غير ما أعني، وأنا تارك لأسباب الدنيا، ألم يقل سيد الكائنات: **«ترك الدنيا رأس كل عبادة، وحب الدنيا رأس كل خطيئة»**، لقد عقدت العزم على «مجاهدة النفس» واخترت الحرية والعزلة، إلى أن يأتي الوقت الذي أجد فيه السعادة الحقيقية في ترك العلائق الدنيوية، وقد قيل:

تعالَ اخترِ الفقرَ، واترك التعلق بالدنيا

إن ترك العلائق الدنيوية مفتاحُ كنز السعادة

ـ أيها الفأر: الدنيا دار فناء، وأهل الدنيا جهلة وغافلون، مثلهم كمثل جهّال سافروا بلا راحلة ولا زاد ولا رفقة، في بيداء شاسعة، شائكة وعرة، بعيدة من العالم المسكون، وفي أعقابهم لصوص مجرمون، وقطّاع طرق محتالون، شديدو المكر، وأمامهم بئر عميق القرار، وهم لشدة غفلتهم لا يلتفتون وراءهم، ولا ينظرون حواليهم، إلى أن قبض عليهم اللصوص، وجرّدوهم من ثيابهم ومما يحملون.

قال الفأر ساخراً: أيها الملك، من أين لك كل هذه المعارف، على يد من تعلّمت حتى توصّلت إلى هذه المرتبة العالية من العلم؟

قال القط: أنا أورد لك أمثلة صحيحة، موثّقة بالأدلة الشرعية، وبمنتهى البلاغة نظماً ونثراً، وأنت تسخر من كلامي وقد قيل: «تعليم الجهّال ووعظهم، كعقدِ لؤلؤ في رقبة الحمار.

قال الفأر: أيها السيد! العلم محكُ الوقار، وعلى العالم أن يشرح ويوضّح، ومن له بصيرة يدرك ويتعلم، ومن لا بصيرة له، لن يفهم مهما كان المعلّم حاذقاً، وإن غباء المتعلمين لا يقلّل من كمال أهل العلم... إذا عرض الجواهري بضاعته، ولم يعرف الأوباش قيمتها الحقيقية، فإن ذلك لا يعيب اللآلىء ولا ينقص من قيمة الجواهر. وأنت أيها السيد المبجّل، تفضل وأنعم عليَّ بشرحك وموعظتك.

قال القط: أيها الفأر اسمع واتعظ:

● مرة وأنا أتجوّل على غير هدىً كالمجانين، وصلت إلى خرابة، فرأيت بومة تقف على اطلال قصر خرب وقد أشاحت بوجهها عن العمران. سألتها: لِمَ تتشبثين بالخراب، وتدفعين عمرك ثمناً له؟

قالت البومة: السبب أنني مررت يوماً ببستان وحديقة ورد، كان

ساكنو البستان يتحدثون كالعلماء الذين لا عمل لهم.. سمعت شجرة الدلب تتطاول وتقول: أنا شجرة الدلب (من جنارم)، والرمان (نار) أفرد وجهه وأشار إلى نَوْرِه، وصاح بالدلب قائلاً: أنت، أيها «الدلب» (جنار)[١٣] قل ما هو ثمرك في الواقع؟

أنت الذي لا ثمر في بستانك

وضرعك لم يعرف حليباً

كيف تدّعي باطلاً أنك (نار) رمان

أنا الرمان الحقيقي (من نارم)، وزهري يشبه هيئتي، لوني لون النار، وجوفي مليءٌ بالياقوت.

عندما سمعت الصفصافة صوت الرمان، صرخت في وجهه قائلة: «أيها الرمان (أيْ نار)، لا تكن مدّعياً وأنت غاطس من الرأس إلى القدم في دم القلب، الصحيح أن أفتخر أنا في هذا البستان على الأصدقاء ثم إن شجرة «النارنج»[١٤]، صرخت في وجه الصفصافة: (من بيدم)[١٥] أي أنا الصفصافة، فقالت لها شجرة الكباد (التُرنج): أنت قلت عن نفسك أنك (بدون دم) فلا تفاخري بعد الآن. سألت الصفصافة شجرة اللباد: وأنت من تكونين؟ قالت: أنا يسمونني «تُرنج»: ما فائدة حياتك وأنت ألم (تو رنجي)[١٦]؟

تابعت البومة قصتها قائلة: لما رأيت هذا الوضع وهذا التنافس، قطعت التجوال في البستان، ورحت أتجول في الحديقة. رأيت وردة حمراء تتكيء على سرير من الزمرّد، وتضع أقراطاً ثمينة من

(١٣) استفاد من الجناس بين كلمتي (جنار) أي الدلب وبين جه نار= أي رمان.
(١٤) قولها من «بيدم» أي أنا الصفصافة فسرته شجرة الكباد أنه (بي دم أي بدون دم).
(١٥) و(١٦) نارنج أي غير مؤلم (نا= لا ورنج ألم)، وترنج تلفظ كقولنا تو= انت ورنج ألم أي أنت ألم.

قطرات الندى، وتحت قدميها بساط من الزّبرجد الأخضر، نُثرت عليه جواهر متنوعة الألوان، ورأيت وردة صفراء كأنها ذهبٌ صاغته يدُ صانع ماهر وقد مازجت أشعة الشمس لونها، حين طرحت على وجه الحديقة أشعتها المتنوعة، ورأيت سنبلة تشبه جدائل الجميلات التي عَلِقتْ كل شعرة منها بقلوب عدد من العشّاق المغرمين، ورأيت السّوسن والنّرجس وقد أضافا إلى جمال الحديقة جمالاً، وكان في تلك الحديقة قصرٌ احترق قلب كيوان غَيْرةً منه وحسداً.

وبعد مدة اشتقت إلى ذلك الجمال، فطرت وحططت على سطح ذلك القصر لأتأمله، وأتأمل البستان والحديقة المحيطيْن به، وإذا الديار قد أصبحت أثراً بعد عين كما ترى؛ ماذا أقول عن غدر الزمان وعن الورود الزائلة:

على غصن الورد قلبي بلبلٌ
أنتِ! أيتها الباكيةُ عجزَ الإنسان وضَعفه
كل قصر كان في الثريا سقفه
أنظري كم هي جميلة خرائبه...

منذ أن رأيت البستان على هذا النحو، سَكَنتُ الخرابة ونفضْتُ يدي من العمران.

قال القط: لما سمعت كلام البومة، أدركتُ أن الدنيا متاع الغرور، فقصّرت يدي عن نعيم الدنيا الزائل، واعتزلتُ في زاوية القناعة، متدثّراً بالصبر، وابتعدت عن صحبة الخلائق، وجلست على طريق التوكّل، وأنستُ بوحدتي، واتخذت الصّبر مذهبي[17]، وقد قيل في هذا الباب:

---

(١٧) العزلة، والقناعة والتوكل والصبر والتصبر من مقامات التصوف.

أيها الأخ تعوّد الوحدة، ولا تخاطب من الخلائق غير قلبك.

ـ أيها الفأر: أنت أيضاً قصّر يدك عن غصب مال الناس، واتخذِ الصّبْرَ والقناعة لك مذهباً، لتشعّ في زوايا قلبك أنوار آية ﴿فاصبر صبراً جميلا﴾[18] وفضلُ حديث (الصّبرُ مفتاح الفرج).

قال الفأر: أيها الملك، عجباً من علمك وفراستك ولباقتك، على أنك في كل ما تشرح من أمور تُبدي الرياء والمكر والخداع.

قال القط: كيف ذلك؟

قال الفأر: لله الحمدُ والمنّة، أنت طالب علم، ولكن لِمَ لا تعمل بما تقول: **«لم تقولونَ ما لا تفعلون»**؟

قال القط: ما هو الأمرُ الذي ذكرته ولا أعملُ به؟

قال الفأر: أمن اللائق بعظمتك وعلمك، أن تحصرني في زاوية لأنني مسكين ضعيف، وتجرح قلبي كلَّ لحظة بحدِّ كلامِك المسنون، وتحزنني بقولك، وترعبني بسطوتك؟ أمن التربية والتعليم والعدل والإنصاف أن تصنع كلَّ هذا بي؟ أتمنى عليك أخيراً أن تقبل مني هذا الالتماس.

قال القط: ما هو طلبك؟

قال الفأر: أتمنى أن تسمحوا لي بالتجول في هذه النواحي، لأحصل على بعض الفاكهة المجفّفة والنقول، أقدمها إليكم، وأنا أقطع على نفسي عهداً أن لا أذهب إلى منزلي، إذا كان هذا ما يقلقكم.

قال القط: أين توجد النقول في هذه النواحي لتحملها إلينا؟

---

(١٨) القرآن الكريم، سورة المعارج، الآية، ٥.

قال الفأر: في هذه الناحية دكّان بقّال، وفيه عِدْلُ جوز، أحضره كله إذا رغبتم فيه.

قال القط: أيها الفأر: بماذا ينفعني الجوز؟

قال الفأر: أيها الملك! الحلوى الملوّنة، وحلوى الطّحين التي تسمع عنها، كلها مصنوعة من لبّ الجوز، كما أن للجوز فوائد عديدة.

قال القط: أوضح لنرى:

قال الفأر: ماء الجوز، قطرةٌ للعين تحميها من العمى، وقشرُ الجوز اليابس، زوج أحذية، يليق بقدمي سيدي المباركتين، إذا عزمت على الخروج من منزلك في الأيام الماطرة، قاصداً التجوال حول البيوت، أو زيارة المطابخ، فانتعله في قدميك اللطيفتين، تحفظها من البرد، وتحميها من الوحل.

وقد قرأت في الشاهنامة[19] في قصة «كوخ المارد الأبيض» أنه صنع كأسَ شرابه من قشر الجوز، وأنا أيضاً على سبيل التجربة، اعتمدت هذه الفكرة السّديدة، فأخذت قشر الجوز مع الفضّة الخام، وصنعت كأس شراب، جاء تحفة عجيبة، ولو لم يكن سيدي صائماً لقدمته هدية له.

أما إذا كنتم ترغبون في اللعب والتسلية، ففي مقام الهزْل نأخذ بضع جوزات ونرميها من الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل، وفي خلطها تسلية كبيرة:

---

(١٧) الشاهنامة: لأبي القاسم الفردوسي أكبر شعراء الحماسة في إيران (٣٢٩هـ.ق - ٤١٦هـ.ق) وتشتمل الشاهنامة على تواريخ ملوك إيران منذ أقدم العصور وحتى العهد الأشكاني والعهد الساماني، وقد ضمّن الفردوسي قصصه الشعري كثيراً من الأمور الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية (فرهنگ فارسي، مجلد ٦).

من الصّباح الباكر يفتح البقّال باب دكّانه

ونحن إثنان نطوف حول الدكان مبهورَيْن

أنا من أجل حبّاتِ الجوزِ أدور

ويدور الجواهريّ من أجلِ اللآلىء

قال القط: أيها الفأر الغبي: برودة الطقس لا تشفي من نزلة البرد، والعطشان لا يرتوي من رؤية أمواج البحر أو ماء الغدير، وأنا بمَ يفيدني اللعب بالجوز الآن؟

● أدرك الفأر أن القطَّ جائع، فقال: أيها الملك! أمس طبخت يخنة على فخذ عصفور، وحضّرت عدة أقراص من الحلوى، أتسمحون أن أذهب إلى البيت وأحضرها لكم؟

سبح خيال القط في اليخنة المطبوخة، وفقد زمام السيطرة على نفسه، وكان لسان حال الفأر يقول في هذا المقام:

ألا تعلم أنك إن أنت أفلتّني من يدك

فلن أعود إليك بألف شبكة صيد؟

ـ وبعد أن تخلص الفأر من قبضة القط، ورمى بنفسه في داخل الحجر، وهو يرتجف كورقة الحور، وقلبه ينتفض كصيد عَلِق في رأس حربة، قال في نفسه: لن أخرج بعد اليوم من بيتي في وضح النهار،؛ وبعد أن ارتاح ساعة، وتذوق بعض الطعام، قرأ هذا البيت:

أيها القلب! إهدأ لأنك وجدت الخلاص من يد العدو

حاذر من يومٍ يضيعُ فيه عمرُك من جديد.

● انقضى النهار إلاّ أقلّه والقط ينتظر الفأر حائراً مضطرباً، يقول في نفسه: إن لم يرجع الفأر، ماذا ينبغي أن أفعل، وما هو التدبير الذي

سأتخذه: مع كل هذا العلم والذكاء تركك الفأر حيراناً، لا: إنه بالطبع سيأتي لاحقاً، لعلّه تأخّر قليلاً في تحضير المائدة والصحون، أو لعلّ أمراً مفاجئاً أخّره:

ما فعلته اليوم رحمةً بالفأر ليس له مثيل في العالم

الذي تخلّص من براثني بالحيلة

يكون فاقد العقل إذا وقع في يدي ثانيةً...

يجب أن أنتظر الآن لأرى ما سيحصل، وستكون النتيجة إما سعادة وفرحاً، وإما أسفاً وحسرة وندامة وغصّة وسخرية..

● كان القط وهو يحاور نفسه منقبض القلب، والغصّة تكاد تخنقه، وقد لبث حائراً متيقظاً، يتخيّل رجل البعوضة، فأراً، إلى أن فقد الأمل من عودة الفأر الأبيض، وعيلَ صبره، وهو رابضٌ ككلب حراسة، جاحظ العينين، وفجأة وقع نظره من ثقب الجدار على الفأر.

أما الفأر فإنه لما رأى القط لا يزال في انتظاره قال له:

ـ السلام عليكم!

قال القط: وعليك السلام أيها الفأر، لماذا تأخّرت في المجيء؟ لقد انتظرتك طويلاً، نحن[٢٠] بعد الحديث والمسايرة التي جرت بيننا[٢١] وبينك، تعلّق قلبنا بك، ولم يهدأ بالنا، ولم نرَ الراحة منذ لحظة الفراق:

الأصدقاء كوريقات البرعم

تضطرب حين تنفصل إحداها عن الأخرى.

(٢٠) و (٢١) يتحدث الهر عن نفسه بصيغة الجمع، (نحن، نا).

ـ على أي حال، أين ذهبت أيها الفأر؟

قال الفأر: ذهبت لأحضّر لسيدي اليخنة وأقراص الحلوى.

قال القط: وهلْ حضّرتها؟

قال الفأر: أعذرني أيها الملك، فلي في المنزل أطفالٌ صغار، ولأنني قضيت في حضرتكم مدة مديدة، ظنّوا أنني قد دُعيت إلى وليمة، فأكلوا اليخنة والحلوى... لذلك طلبت إلى بعض الأشخاص أن يذبحوا من أجلكم خروفاً. يحمّرون القلبَ والكبدَ لكم فطوراً، ومن الفخذ الأيمن يحضّرون (قورمة)، ومن الفخذ الأيسر (يخنة)، والباقي (شواء).

ظل الفأر مدة مديدة على هذا المنوال، يصف ويتحدث، والسخرية بادية في تلميحاته، والقط متلهّف إلى الأطعمة التي سمع وصفها، يقول في نفسه حيناً: لن يذهب صبرنا سدى إن شاء الله، ستكون وليمة عجيبة متنوعة، يُفتقد في أثنائها الأصدقاء والخلان، وحيناً يقول: إن مكرَ الفأر عظيم، وغدرَه كبير، لأن الكذب والحيلة في جبلته، أخاف أن أنتظر دون نتيجة.

قال القط: أيها الفأر، أهذا جزاء مروءتي وإحساني، أن أسمع منك كلاماً معسولاً لا طائل منه، كأن لا فرق بين قولك وبولك!

قال الفأر: أيها القط! لو لم تكن فاقدَ العقل لما أفلتّني من يدك!

● أيها الأعزاء: لا تظنوا أن حوار الفأر والقطّ بلا جدوى!

الفأر نفسكم الأمارة [بالسوء]، التي تريد أن تتخلّص من سلطة العقل بالحيلة والخداع، وأن تُفسِدَ صاحبها باقتدائها بالشيطان،

وبعد ذلك تسخر من العقل وتهزأ منه، وتضيّع عليه نعمة الاختيار الصحيح.

أيها الأصدقاء: كان القط بما يملك من صولة وشوكة قد سيطر على الفأر ووضعه في تصرفه، ولكن النتيجة أنه لانَ وتراخى بعد أن سمع من الفأر حديث الشَواء والحلوى، لقد أعمى الطّمع بصيرته، فخُدع وأفلت الفأرَ من يده.

وأنت إن لم تفلت عنانك من يدك، وتسلّمه إلى النفس الأمارة، فلن تتأخر في نيل مطلبك.

والمغزى من هذه الحكاية، أن في كل لفظة عدّة وجوهٍ من النصيحة، المطلوب أن لا تستخدم القياس، ولا تظنّ أن كل من جامَلَك حَسَنُ الطّباع.

في كل الأحوال، تعلّم نصيحةً من قصة القط والفأر، لتصل إلى حقيقة النفس الشهوانية، وتدرك حقيقة الدنيا الفانية وأوضاعها، التي ذكرت على لسان القط.

ستسمع أيضاً من الفأر والقط في كل باب أخباراً وسترى مباحثات ومجادلات كثيرة عن تصوّف القط والفأر، وفي النتيجة! أخاف أن لا يتوصّل ذوو الطباع الناقصة والعقل القاصر إلى المعاني التي تحتاج إلى كل الإدراك والاستعداد، ويضيع تعبُ هذا الفقير:

أخرجتُ من قعر البحر جواهر لأفتح دكاناً في السوق

زلّتْ قدمي في بازار التكبر ففتحت ثغرة في ميدان السّعادة

أخاف أن يكون المشتري قليل المعرفة...

ومن شدة الخوف لا يدرك معنى الدنيا

ـ الغاية أن ينظر القرّاء بكمال التدّبر والتفكّر، لتشعّ في خواطرهم أنوار هذه المعاني.

● نعود مجدداً لمتابعة حديث الفأر والقط:

ـ ابتلع القطّ غيظه وقال: أيها الفأر! ما فعلته معي ليس من الأخوة في شيء.

قال الفأر: ماذا فعلت؟ أنا أقسم بحقّ صداقتنا القديمة، أنني أمرت عدة أشخاص أن يحضّروا الوليمة ويخبروني عندما ينضج الطعام وقَدِمتُ أحادثك، لأنني علمتُ أن جلوسَك وحدَك أمرٌ شاق.

قال القط: أيها الفأر، أحصّلْتَ شيئاً من العلم؟

قال الفأر: لي نصيبٌ من العلم، أما النحو فلي به معرفة تامة.

أنصت القط إلى قول الفأر، وتشاغلا في الحديث.

ثم قال القط: أيها الفأر: أقرأت ديوان خواجة حافظ(٢٢)؟

قال الفأر: بلى! كلّما أردت الخروج من المنزل، آخذ فألاً من ديوان حافظ، وأقرأ قليلاً من مقام (الراست) والـ (پنجگاه) وبعدها أخرج.

قال القط: أيها الفأر أتعرف أيضاً الغناء؟

قال الفأر: بلى.

قال القط: ألك مهارة في علم الموسيقى؟

قال الفأر: بلى!

قال القط: إذاً لك خبرة في المقامات؟

---

(٢٢) خواجه حافظ: هو الشاعر العرفاني حافظ الشيرازي.

قال الفأر: للعبد الفقير مهارة تامة في [علم] المقامات.

● أخذ القطّ يناجي نفسه ويقول: يمكن التحقّق بطريقة ما، إن كان الفأر سيحضر الوليمة أم لا، وطالما أن الطّعام لمّا يحضّر بعد، فالفأر متغلّب عليَّ... أنا متردد بين لا ونعم، إنما شك في لا ويقين في نعم.

- بعد ذلك قال: أيها الفأر! ديوان خواجة حافظ معي، أتريد من باب الممالحة والصّفاء والصدق، أن نفتح فألاً معاً؟

قال الفأر: حسنٌ جداً!

أمسك القط بالكتاب، وأضمر في نيّته: «هذه الوليمة التي وعدني بها الفأر، صدقٌ هي أم كذب؟ خيالٌ أم حقيقة؟».

فتح الكتاب فجاء هذا الشعر:

نقود الصُوفي ليست نقية بلا غشّ
ما أكثر الخِرَق التي تستحقّ النار
صوفيّنا الذي سكر في وقتِ السحر
ليلُه مضطربٌ من شدةِ السكر
حسنٌ أن يوضعَ على محكّ التجربة
ليسودّ وجهُهُ لما فيه من الغش

ه قرأ هذا الفأل على نعم «الشّهناز»، اكتشف أن الفأر كاذبٌ، والفأر فكّر في هذا المعنى أيضاً وقال: فألٌ عجيب، جاء موافقاً للكذب!

قال القط: أيها الفأر! ماذا تقول أنت في هذا الفأل؟

قال الفأر: لقد حصّلت هذا الفأل بنيّة مشوّشة، يجب أن أضمرَ أنا لنرى ما سيأتي.

قال القط: حسنٌ أعقد النيّة بنفسك.

● أمسك الفأر الكتاب وعقدَ النية فجاء هذا الغزل:

ألقى المتصوّف شبكته ومارس الشّعوذة

وجمع حبائل المكرِ إلى شعوذة التّنجيم

لم ينجح مكرُه، فكسر البيضَةَ في قبعته(٢٣)

لأنّه كان يعرض شعوذته على أهل السرّ

قال القط: هذا الشعر موافق لحالتنا، لأنك أنت صوفي وأنا طالب علم، نحن أهل السرّ، لأننا أصحاب الدرس والبحث، وقد تأكدت الآن أنك كاذب، وغيرُ صادقٍ في محبّتك.

قال الفأر: أيها الملك! أنت تهينني بكلامك، ها أنا أقرأ اسمك صريحاً، وأظهر لك خيانتك وحقدك.

قال القط: أين؟

قرأ الفأر: هذا الشعر:

أيها اليمام الطائر بوقار ودلالٍ

لا يغرّنك أن القطّ العابدَ يصلي

ـ أيها القط لماذا نجلس حائريْن منتظريْن، يتّهم أحدنا الآخر بالمكر والحيلة، وأنا قلبي لك صافٍ في الحقيقة، وقلبك غير مطمئن، وإلاّ لما كنت تكرّر تجربة الفأل بالكلمات، محبتي لك ظاهرة، فإذا كان لديك صبرٌ إلى أن تُحضّرَ الوليمة، سأروي لك قصة...

قال القط: حسن! إحكِ وأنا مصغٍ إليك.

---

(٢٣) كناية عن انكشاف أمره.



الاميرة العاقلة والملك الطماع والحاكم العادل

قال الفأر:

ـ «زعموا أنه كان في مدينة بُخارى ملك، وكان له بنتٌ ولأخيه ابنٌ أيضاً، وقد تعاهد الفتى والفتاة منذ الطفولة أن يكون أحدُهما للآخر.

وبعد مدة مات الملك، فصمّم الوزير أن يزوج الأميرة لابنه. لما سمع ابنُ عمها الأمير بالأمر، أرسل إليها رسالة يسألها إن كانت قد نسيت العهدَ القديم بينهما.

فأرسلت إليه رسالة تقول فيها: إيه يا ابن العم، أنا لك وأنت لي، ولكنني رضيتُ بابن الوزير مرغمة، وإن موعدنا أنا وأنت ليلة الزفاف قرب شجرة النسرين في حديقة القصر.

عندما قرأ الأمير الرسالة، سرَّ كثيراً وتجمَّل بالصَّبر منتظراً الموعد.

● انقضت مدة، وهيّأ الوزير أسباب العرس، في الليلة الموعودة، أحضر الأمير حبلاً وتسلّق سور الحديقة، وانتهز الفرصة حين رأى خدم القصر منهمكين، يروحون ويجيئون، وأخفى نفسه وراء شجرة النّسرين.

عندما انتصف الليل وهدأت جلبة القوم، اختلقت العروس عذراً وخرجت من غرفتها خائفة تترقب، وتتلفت حواليها مشغولة الفكر إلى أن وصلت إلى شجرة الموعد، حين سمع الأمير الشاب وقع الأقدام، نهض وألقى نظرة، فإذا هي الأميرة الحبيبة، فاقترب منها وجثا عند قدميها.

قالت الأميرة: لا وقت الآن للمجاملة، هيا نذهب إلى الاسطبل، فهناك حصانان مسرجان، نمتطيهما ونغادر المكان.

مضى الشاب مع الفتاة، وكان خدم الاسطبل نياماً، فأسرجا الحصانين، ووضعا كثيراً من الذهب والجواهر في صندوق، حملاه معهما وجدّا في المسير.

ـ أما الصهر ابن الوزير فقد انتظر عروسه ساعتين أو ثلاث، ثم خرج من مقصورته يفتّش عنها، ولما فقد أثرها حزن وتشوّش فكره، وقرّر ترك منزل والده، وحياته المستقرة، وفي الليلة ذاتها، وفي الوقت عينه، دخل الإسطبل، وامتطى حصاناً وخرج يفتّش عن الفتاة.

قال الفأر: أيها القط! هذه القضية تشبه حالنا معاً، لو أن ابن الوزير لم يسمح للأميرة بأن تخرج من الغرفة، لما أوقع نفسه في هذه الورطة..

● عندما سمع القطّ كلام الفأر وأدرك مغزاه، صاح قائلاً: أيها الفأر! أنت تهزأ مني، بعد أن منّيتني ووعدتني وحجزتني على بابك، إني لأرجو وآمل أن يسلّطني ربّ العالمين عليك مرة أخرى.

قال الفأر: أيها الملك! يجب أن يتحلى العظماء والسادة بسعة الصدر، أيثيرك القليل من المزاح والملاطفة؟

فليطمئن خاطرك الشريف لأنني لا أزال على إخلاصي لك، لِمَ لا تسأل عن ما جرى للأميرة وابن عمها؟

● لما غادرت الأميرة وابن عمها المدينة، قطعا المراحل وطويا المنازل، إلى أن وصلا إلى ساحل البحر، وصادف أن سفينةً كانت على أهبة الإقلاع، فأرضَيا القبطان بحفنة من الذهب والجواهر، فأقلهما في سفينته، وسافرا في البحر وهما يردّدان هذا الشعر:

أوقعتنا سفينة الحظّ في دوّامة البلاء

إلاّ إذا كان مراد الرياح حملها إلى الساحل

إلى أين سيصل بنا الربّانُ ولطف الله؟

وهل ستكسر رياح الإعصار السفينة أو تحصرها في الوحول؟

وحين وصلت السفينة إلى عرض البحر، تذكّرت الأميرة أنّهما حين فتحا الصندوق، وأعطيا منه للربّان أجرَه، نسياه على الشاطىء؛ عندما سمع الأمير هذا القول ركبَ زورقاً، ورجع لاستعادة الصندوق.

بعد ذهاب الأمير الفتى تحرّك طمع الربّان، وقال في نفسه: «إن لله تعالى جعل هذه الفتاة من نصيبي، لجهل ذلك المغفّل الذي أفلت هذه الدرّة الثمينة، وذهب في طلب الذهب».

اقترب الربّان من الفتاة، وأراد نزع خمارها، ولما كانت الفتاة عاقلة عالمة، قالت في سرّها: إن أظهرت حدّة في هذا الموقف سيرميني في البحر، يجب أن أعتمد على الحيلة والمراوغة، لأطمئنه فينام على الحرير نومَ الأرنب، فأستفيد من الوقت، لأن العناد والحدّة لن يجديا نفعاً.

وبهذا الهدف قالت للربّان:

ـ أيها الرجل! أنا لك، بشرط أن تعقد عليَّ وتقيم لي عرساً، لأن «الحرام» ليس من التعقّل والمروءة في شيء.

رضي القبطان بقول الفتاة، وأرخى مراسي السفينة، وتوجّه نحو وطنه..

● يحكي الراوي ويقول: إن الأمير حين وَصَل إلى الساحل، اضطربت خواطره، وهاجت أشجانه، وخاطب نفسه قائلاً: أيها القلب الغافل أي الجواهر أعزّ من الدرّة النفيسة التي تركتها وحيدة، وأتيت تطلب الذهب؟

أصابه الندم، ثم إنه لم يجد الذّهب أيضاً، فقفل عائداً، وعندما وصل إلى حيث كانت السفينة، لم يجد لها أثراً، فاضطرب واحتار في أمره، ولكنه قاد الزورق حزيناً، وأسرع يفتش عن الأميرة الضائعة.

ـ أيها القط: لو لم يكن هذا الفتى أحمق مثلك، لما ترك فتاته وأسرع في طلب الذهب ـ مع أنه لم يكن متأكداً إن كان سيجده أم لا ـ وأوقع نفسه في هذه المصيبة.

ـ أيها القط: هذه حالنا أنت وأنا، أوقعتني في حبائلك بمئة حيلة، وفي النتيجة أفلتّني من يدك طمعاً بالقورمة واليخنة، والآن لا فائدة من الحَيْرة ولا نفع:

إن كل ما تضيّعه من يدك، إيجاده من جديد عينُ المحال

ليس حكيماً من يفقد القدرة على التدبير، وليس له مرتبة العقل والكمال.

● عندما سمع القط هذا الكلام صاح وناح، وأنشب مخالبه في الأرض، وحرّك ذنبه بعصبية وتوتّر.

قال الفأر: عندما رأى القط شديد الاضطراب: أيها الملك! كنت قد ذكرتُ لكم قبل الآن، أن العظماء لا تفقدهم الأمور البسيطة توازنهم، ولا يفقدون الصّبر، ولا يشترون الأحزان لأنفسهم.

ـ أيها القط: ابتعد عن سوء الظن، واطوِ مرحلة الإنصاف والمروءة، لتصل إلى مرحلة الصدق والصّفاء.. أنا عبدك وخادمك المطيع أروي الحكاية من أجلك، فدعني أكمل الحكاية لتعرف ما جرى للأميرة والقبطان.

ـ أيها القط: ماذا دهاك لتصاب بالخَرَس! إلى أن أُكمِلَ الحكاية، تكون الأطعمة قد نضجت، وأعدَّت المائدة؟

ـ أيها القط: .... أخذ القبطان الأميرة وذهب، ولما وصل بها إلى الساحل قالت له: ألك في وطنك أهلٌ وعشيرةٌ أم لا؟

قال الربّان: بلى.

قالت الفتاة: إذاً يجب أن ترسو بالسفينة هنا، وتذهب إلى المدينة تحضِر بعض أهلك، لاصطحابي إلى منزلي معزَّزة مكرّمة. صدّق القبطان كلامَ الفتاة، وتوجّه نحو المدينة ليلبي طلبها.

ـ لما غادر القبطان السفينة، قالت الفتاة: ربّي إني ألتجيء إليك، ألهمني الصبرَ والرأي السديد، ثم إنها أرخت الشّراع، وقادت السفينة بلا ماء ولا زاد، إلى أن وصلت إلى إحدى الجزر حيث الأشجار تطاول عنان السماء؛ ربطت الفتاة السفينة إلى صخرة، وسارت في تلك الجزيرة، التي بدت مأهولة، متنوعة الثمار، جارية الأنهار، قال الشاعر في وصفها:

تلك الجزيرة نفحة من نفحات الجنّة

يحار العقلُ حينَ رؤيتها كمن به جُنّة

مكثت الفتاة في هذه الجزيرة وقتاً، إلى أن رآها جماعة من الحرس، فحملوها إلى كبيرهم، لما رأى هذه الأخير حُسنَ الفتاة وجمالها، وعَرَف أنها عاقلة عالمة أدرك بالفراسة أنها ليست لقمة سائغة له، وقال في نفسه: إن أخذتها سأغصّ بها ولن أهنأ، وسيعرف الملك بالأمر، يجب أن أهديها إلى الملك، ثم إنه أخذها وأرسلها بصحبة زوجته إلى ملك الجزيرة.

● لما وقع نظر الملك على تلك الفتاة، هام بها وشغف إلى درجة تفوق الوصف... ولما أراد مقاربتها، اعتذرت الفتاة قائلة: أيها الملك العظيم الشأن، أتمنى أن تمهلني أربعين يوماً، وبعد ذلك أكون طوع أمرك؛ وبما أن الملك أحبّها فعلاً، فقد أمهلها كما طلبت...

وكان شوق الملك إلى الفتاة يزداد يوماً بعد يوم، وكان للفتاة أسلوب في التصرّف جعل «حريم القصر» ينزلنها في قلوبهن منزلة عظيمة، ولا يتركن لحظة تمر دون أن يسعَيْن إلى محادثتها ومسامرتها...

وفي إحدى الليالي، كانت الفتاة تحادث الحريم، فوصل بهنّ الكلام إلى وصف البحر، وشعشعة أنوار الشمس على سطح الماء، وقد عبّرت عن ذلك بخلابة وبيان عذب، جعل نساء البلاط يتمنّيْن القيام بنزهة في البحر؛ وقرّرن أن يذهبن معاً إلى الملك يطلبن الإذن...

● أما القبطان، فقد ذهب إلى منزله، وجمع عدداً من أقاربه وأهله، وأخذهم إلى شاطيء البحر ليصطحبوا الفتاة إلى منزله، ويقيموا لها

عرساً يليق بها؛ ولما وصلوا إلى الشاطىء، لم يجدوا للسفينة أثراً ولا للفتاة. ولم يعرف الربّان أمن أجل السفينة يحزن أم من أجل الفتاة.

أصابه الغمّ والحزن، وضرب كفّاً بكف، وشقّ قميصه، وانتحب، ومن شدة حزنه سار بمحاذاة الشاطىء متعقباً أثر الفتاة..

ـ أيها القط: قِصة القبطان والأميرة شبيهة بقصتنا أنا وأنت، لو لم يتركها تفلت من يده، لما كان الآن يركض على شاطىء البحر، وأنت لو لم تفلتني من يدك، لما كنت تعاني مرارة الانتظار، إن تخلّيك عني دليلٌ على حمقك وغفلتك، والآن ماذا بإمكانك أن تفعل؟ إذا استطاع القبطان أن يستعيد الفتاة، ستتمكن أنت أيضاً أن تقبض عليّ من جديد.

● لما سمع القطّ هذا الكلام، صرخ من شدة القهر والغضب، وقال: أيها الفأر! لقد تركتني أسير الحَيْرَة والأمل، ثم عدت بعد مدة، تذكر كلاماً يسببُ اليأس والقنوط، وهكذا يصبح الذهاب أولى من الانتظار.

قال الفأر، أيها القط: يقول الرسول(ﷺ): **«الناس أحرار والراجي عبد»**، أي أنك إذا قرّرت أن تعيش الأمل، فإنك تصبح عبد هذا الأمل، وإذا لم تقرّر ذلك تصبح حراً، الأَوْلى أن تذهب إذا كنت تريدُ ذلك، كي لا ينقطع حبلُ أملك بمقراض مصري، أو فلْتُظهِر القليلَ من الصبر.

والآن تأمّل وانظر ما وقع لملك الجزيرة والفتاة:

قال الفأر: ثم إن الفتاة ونساء القصر قرّرن أن يطلبن من الملك الإذن للقيام بنزهة في البحر، ولما أصبح الصباح، وصادف أن الملك كان رائقَ البال سعيداً، أجابهن إلى طلبهنّ، وسأل الفتاة إذا كانت هي

أيضاً تتمنى رؤية البحر فقالت: بما أن نساء البلاط يرغبن في ذلك، وإذا أشفق وليّ نعمتنا بالسماح لنا، فإن ذلك سيكون لطفاً منه ورحمة... ثم إن الملك أمرَ الخصيان أن يقيموا الحظر على التجوّل في البحر، وكتب أسماء أربعين امرأة وأرسلهنّ مع الفتاة في تلك النزهة البحرية...

أوصل الخصيان النساء الأربعين ومعهن الفتاة إلى شاطىء البحر، فركبن سفينة قادتها الفتاة، وظل الخصيان على الشاطىء ينتظرون عودة الفتاة ومن معها وقد عيل صبرهم...

ظلت سفينة الفتاة والنساء تسير ثلاثة أيام على سطح الماء، وناظر الحريم ومن معه ينتظرون، ولما يئسوا من عودتهنّ عادوا إلى الملك، وأخبروه بحقيقة الأمر، فاغتمّ كثيراً مما جرى، وهاج واغتاظ، وطلب الملاحين والغوّاصين وأرسلهم للتفتيش..

● بحثوا كثيراً وفتّشوا، ولما لم يعثروا على أثر للفتاة أو للحريم عادوا وأخبروا الملك.

ولشدة حزنه اتجه الملك نحو البحر تاركاً وراءه تاجه وعرشه...

ـ أيها القط: لو أن الملك لم يطمع بتلك الفتاة، لما أرسل حريمه برفقتها، ولما أرسل معهنَّ ناظر الحريم الذي لا يُعتمد عليه، ولما ذاق كل هذا العذاب.

ـ والآن أيها القط: ما وقع لك لا يقلّ سوءاً عن هذه القضية، وذلك أنك أفلتّني من يدك دون سبب وجيه، ثم وقفت حيراناً مضطرباً، لا تملك القدرة على التقدم، ولا على التراجع، والألم يزداد ساعة بعد ساعة.

ـ أيها القط: لو أن الملك فكّر قليلاً قبل أن يسمح للحريم بتلك

النزهة، لما عانى كل ذلك الاضطراب والألم، وأنت لو لم تفلتني، لما كنتَ الآن نادماً.

● اشتعلت نيران الغضب في صدر القط من هذا الكلام وصاح متأوهاً:

ـ أيها الفأر الظالم وصلت إلى مقام الهزل، أتمنى أن يسلطني ربُّ العالمين عليك ثانية.

ـ ندم الفأر وقال في نفسه: ليس من العقل في شيء، أن توقظ العدو من نومه، لذا وجّه كلامه وجهةً أخرى قائلاً:

ـ تعال أيها القطُّ من جديد، نعيد عهد الصداقة والأخوة، ونصرف ما تبقّى من عمرنا معاً.

ـ ثم عاد وقال: أيها القط! أتعرف ما وقع للفتاة وللحريم؟

قال القط: لم يبقَ عندي أذن تسمع، ولا عقل يدرك، كأنك أيها الفأر لا تعرفُ أيَّ بلاءٍ يكمن في الانتظار، والأمل المتصدع، والعلم المغشوش!

قال الفأر: عندما يأتي الطعام إن شاء الله، نعيد عقد أواصر الأخوّة من جديد ألم تسمع ما قيل:

«من لا يعرف قيمة المؤاكلة والممالحة، هو شخص رديء الأصل».

ـ والآن استمع لما تبقى من الحكاية وتكون الوليمة قد أعدّت؛ نعود إلى خبر الفتاة ومن معها من الحريم:

ـ أرخت الفتاة المرساة، فأقلعت السفينة، ووصلت بعد سبعة أيام إلى إحدى الجزر، وهناك حطّت مراسيها، وخرج النسوة منها،

وأخذن يتجوّلن ويتفحّصن المكان، وشاء القضاء أن يراهن أحد الحرّاس ويخبر حاكم الجزيرة الذي أرسل في طلبهن...

● لما وقع نظر الحاكم على تلك الفتاة، أدرك بفراسته أنها تتحلى بالجمال والكمال، فطلب إليها أن تروي له قصّتها:

رَوَت الفتاة للحاكم العادل، ما جرى لها بالتفصيل، فسرّ بها وأكرمها، وأجلسها في ديوانه وراء حجاب لترى من في القاعة دون أن يراها أحد، لأمر في نفسه، ثم أمر المنادي أن يطلب إلى حرّاس أبواب المدينة، ورؤساء المحال والأقاليم، أن يحضروا إلى ديوان الحاكم كلّ غريب يدخل الجزيرة...

ـ بعد أسبوع من هذه الحادثة، أحضروا إلى مجلس الحاكم رجلاً قالوا إنه قدِم إلى الجزيرة لتوّه، لما دخل الغريب، نظرت الفتاة إليه من وراء الستارة، فإذا هو عريسها السابق: ابن الوزير.

ـ سأل الحاكم الشاب الغريب عن هويته وعن سبب قدومه، فعرض الشاب قصّته دون زيادة أو نقصان.

نظر الملك إلى ما وراء الستارة ليتحقق من الفتاة عن صحّة ما قال الشاب، فقالت: «إنه يقول الصدق».

عيّن له الملك مضيفاً وأمره أن يكرِمَه ويبقيه إلى حين.

● بعد شهر أعلن الحارس قدوم رجل غريب آخر، ولما أدخل مجلسَ الحاكم ورأته الفتاة سرّت كثيراً، فقد كان القادم ابن عمّها، ثم إن الحاكم استفسر منه عن حاله، فنقل له الشاب ما وقع له بالتفصيل.

ـ سأل الحاكم الفتاة، إن كان الرجل صادقاً، فقالت: بلى، فعيّن من أجله مضيفاً وأمره أن يكرمه.

● بعد مضي عشرين يوماً أخر، أتى حارس ومعه رجل غريب، نظرت إليه الفتاة، فإذا هو ربّان السفينة.

سأله الحاكم عن حقيقة أمره فروى له قصة مختلقة، قال: «أنا رجل تاجر، كنت مع جماعة من التجار في سفينة تعرّضتْ لإعصار، وأنا الوحيد الذي نجا، وقد استطعت أن أصل إلى جزيرتكم على قطعة من الخشب».

ـ سأل الحاكم الفتاة، فقالت: إنه كاذب، وهو الشخص الذي طَمِعَ بي حين تركني ابن عمي في عهدته.

ـ أمر الحاكم أحد حجّابه أن يحجزه في منزله، وأن لا يطعمه إلاّ ما يسد به رمقه كي لا يموت جوعاً.

● بعد أيام، أحضروا من جديد رجلاً غريباً آخر، ولما استعلم منه الحاكم عن حقيقة حاله قال:

ـ أيها الحاكم الطيّب الذكر: أنا أؤمن أن الكذب أصل المذلّة والمهانة، ولكنه في بعض الأحيان يصبح واجباً: كأن يذهب مسلمٌ إلى بلاد الإفرنج، ويقول أنا منكم على سبيل التقيّة إذا كانت حياته في خطر... أو أن مسافراً وحيداً في الصحراء باغته لصوص وسألوه عن ثروته، فقال: لا أحمل شيئاً لرفع الظن، واضطر أن يُقسم على ذلك، وهو في الحقيقة يمتلك أشياء ثمينة.

● الخلاصة أيها الحاكم العادل، ليسَ أفضل من الصدق شيءٌ في اعتقادي، أما إذا كان الصدق شهادة على خيانة الأمانة، ودليلاً

على الحماقة والغباء، فلا بد من إخفائه، ويصبح الكذب أفضل منه، وذلك أنني إذا قلت الحقيقة سيغضب مني السامع، وأنا سأخجل من نفسي وأنا أرويها، وكما قال «سعدي» عليه الرحمة في «گلستانه»:

«في الكذبِ مصلحةٌ إذا كان في الصدقِ فتنة

الصدق يستوجب رضى الربّ، وما ضاع صادقٌ أبداً»

- إلتفت الحاكم ناحية الفتاة، فقالت: إنه الملك الذي أحضرتُ معي حريمه الأربعين.

بما أن الحاكم عَرَف سرّه قال له:

- أيها الغريب: نحن نعرف قصتك كاملة، ولا حاجة بنا إلى الشرح.

● خجل الملك من هذا القول إلى درجة فضّل معها الموت على الحياة...

- أيها القط! إن هذه الحكاية تشبه قصتنا معاً، لأن ما عاناه هذا الملك من الغمّ والغصّة والخجل في بلاط الحاكم العادل كان بسبب طمعه بالفتاة.

- أنت أيضاً أيها القط: لو لم تطمع «باليخنة» و«القورمة» ولم تفلتني من يدك لما عانيت الانتظار والحَيْرة.

● صرخ القطّ غيظاً فقرأ الفأر هذا الشعر:

إذا كانت عيناك قد غَشِيت من كثرة الهم

وضاع أملك بالمستقبل، فتعبك أيضاً ضائعٌ

إخفِ طمعك واستره، فلن تنال مني شعرةً

● ضرب القط بأمّ يده على رأسه وقال:

لو أن ملك الموت قبض روحي في هذه اللحظة لكان خيراً من سماع كلامك هذا، لقد كنت أظن أنك ستعاملني بالمعروف لأنني أقدمت على زيارتك في بيتك وأحسنت إليك، وقد بتُّ الآن متأكداً مما يجول في خاطرك...

قال الفأر: أيها القطّ! لا أعلم لماذا أنت قليل الصّبر، في المسامرة يختلط الجدّ بالهزل، والكذب بالصدق، وأنت تقف على طريق واحد، وتحمل الأمور كلها على محمل الجدّ، لذلك فإن من الصّعب أن تستمر رفقتنا معاً دون مشقّة وعناء، وفي كل الأحوال، لم يبق من الحكاية (المثل) سوى كلمتين وتكون «القورمة» قد نضجت والشّواء قد أعدّ.

إستمع الآن لترى إلى أي حدّ اجتهد الحاكم العادل في تحقيق العدالة: طلب **أولاً**، ابن الوزير وقال له: لقد تعبت كثيراً أيها الشاب، لذا سأزوجك بابنة أحد وزرائي، وأرسل معك جماعة من الناس يوصلونك إلى وطنك. وبما أن ابن الوزير كان قد واجه الكثير من المشقّة فقد فرِحَ جداً بعرض الحاكم، وبعد ذلك هيّأ الحاكم أسباب الزواج وعقد للشّاب على ابنة أحد وزرائه، وقبل أن يسمح له بالسّفر قال له:

أيها الشاب بما أنك ذاهب إلى وطنك، ولم تعد بك حاجة إلى الأميرة التي كنتَ قد عقدت عليها؛ والتي ربما كانت لا تزال على قيدِ الحياة، وقد وقعت في يد شخص ما، وأنت لا تستطيع أن تجدها، وفي بقائها على ذمّتك منقصةٌ لكما ومذمّة في الدنيا والآخرة.

قال الشاب: أطلّقُها لما فيه الخير لكلينا.

وفي الحال أجرى صيغة الطلاق، وعندها سمح له الحاكم العادل بالرّحيل.

ـ أيها القط: أنت أيضاً يجب أن تطلّق **النهم** وتتزوج **القناعة**، وبالتوكّل والقناعة تغادر إقليم الحزن والكآبة، إلى السعادة والهناء..

كل أمر كانت بدايته الجهل

لا تكون نتيجته سوى ألم النّدم

ـ صرخ القطّ: أيها الفأر إن المزاح عندك قد تجاوز الحدّ.

قال الفأر: لم يمرّ عليَّ طيلة عمري يومٌ كهذا اليوم، في أول النهار وقعت في براثنك، أنت الظالم، عديمُ المروءة، وفي آخره، أنا مرتاح آمنٌ وأنت على أعتابي تستجدي كرمي.

قال القط في نفسه: لا أستطيع أن أتحمّل أكثر من هذا التقريع والتوبيخ من الحثالة، سأذهب الآن وإلى وقت آخر..

ـ ثم عاد وقال في نفسه: بعد كل الصبر الذي عانيت، من السهل أن أصبر لحظة أخرى، علَّ الأمر الذي أنتظره يتحقق، أو أذهب حين أقطع الأمل نهائياً...

بعد ذلك قال القط: لا تجوز أذيّتنا أكثر من هذا، لماذا تهزأ منا أيها الفأر إلى هذا الحد؟

قال الفأر: عُدت إلى أول الكلام؟ أنا أخبرتك أن الهزل ممدوحٌ كثيراً أيجب أن تتألم وتغضب من أي كلام يقال؟

ـ إسمع الآن ماذا فعل الحاكم العادل للفتاة والربّان والملك الطامع والشاب.

● في اليوم التالي طلب الحاكم ربّان السفينة وخاطبه بقوله:

أيها الغادر لماذا كذبت في حضرتي؟ أنا مطّلع على باطن أعمالك، أمن اللائق أن تخون إنساناً إئتمنك على أعزّ ما يملك؟ سأذيقك الآن جزاء فعلتك وفي الحال أصدر الأمر بقتله.

ـ أيها القط: الحديث واحد، فعلك وفعل ذلك الربّان الذي خان الفتى سواء: أنت قيّدتني عاجزاً في الركن، وأردت تمزيقي بمخالبك شرّ ممزّق، وفي نيّتك خيانتي، والآن فإن جزاءك الحسرة والنّدامة، أما القتل فلا أستطيعه، وسيحين الوقت الذي تعاقب فيه نفسك بنفسك.

قال القط: إيهٍ من تقلّب الزمان وغدرِه، ومن قلّة عقلي، فقد صيّرتني غفلتي أسيراً لك.

قال الفأر: أيها القط! لا ترافق أحداً بمثل هذا الطّبع الحاد والصبر النافد والغرور الزائد.

قال القط: أنّى لي الصّبر بعد الآن؟

ـ ثم إن الفأر قرر أن يسكت ليغيظ القط.

أخذ القط يغني ويترنّم، ومع ذلك لم ينبس الفأر ببنت شفة؛ بعد قليل سمع القط حركة الفأر فسأله: أين أنت؟

أجاب الفأر: أيها الملك! ذهبت أتفقّد أمر الوليمة، فوجدتُ أن الحلوى جاهزة واللحم قد نضج إنما لِم يحمّر بعد، وما أن ننهي هاتين العبارتين حتى تكون المائدة قد أُعِدّت.

ـ وبعد أيها القط! إستمع إلى بقيّة الحكاية:

ـ في اليوم التالي: طلب الحاكمُ الملك الخائن، والنساء الأربعين، وقال له:

ـ أيها الرجل! إننا نعلم حقيقة أمرك، وإن كل الهم والتّعب الذي عانيت، وتخلّفك مدة عن ملكك وجيشك إنما كانت بسبب تلك الخيانة التي عرضت لك، فلتتب عن الجشع وعن كل فعلٍ قبيح، **«لأن الملوك هم مقياس عصمة الناس»...**

ثم إنه وهبه مالاً وأمره بالعودة إلى مملكته.

ـ أيها القط: أنت أيضاً تنوي خيانتي، ولكنني مع ذلك سأرسلك إلى منزلك معزّزاً مكرّماً.

ـ صاح القط وتأوّه وقال: يا رب! متى سننهي هذه القضية؟

قال الفأر: أيها القطّ الجاهل! المائدة التي تملأ رأسك في الطريق، إصبر قليلاً لتتم الحكاية، وبعد ذلك ستعلم مدى إخلاصي لكم.

استمع قليلاً:

● ثم إن الحاكم العادل طلب الشاب وقال له: أيها الفتى! أتعرف الفتاة إن رأيتها؟

قال: نعم، أعرفها!

● أزاح الحاكم الستارة فظهرت الفتاة، فاحتار الشاب وتعجّب، أفي النوم ما يرى أم في اليقظة؟

والنتيجة كانت، أن عقد له الملك على الفتاة، وجهّزهما بالمال والمتاع وأعادهما إلى ديارهما وملكهما.

ـ أيها القط: بدليل «أن كلٍ طويل أحمق»، تبدو حماقتك جلية، لأنك ما زلت تتوقّع تعاطفي، مع كل ما تضمر لي من العداوة.

قال القط: إذا كان صحيحاً أن كل طويل أحمق، فأنا قد قرأت في الكتب أن كل قصير فتنة الدهر... فإذا كنت أنا أحمق فأنت فتنة...

والآن ماذا تقول، أنذهب أم ننتظر؟

قال الفأر: من الأفضل أن تذهب، لأنك إذا ذهبت إلى المقهى[٢٤] حيث يشربون الحشيش، ربما وجدت القيّم هنالك قد نام فتسرق لقمة وتأكلها.

قال القط: فلنذهب معاً أيها الفأر.

قال الفأر: أتعلم يا سيدي، أن ليس لدينا خادمٌ ليحمل الطعام إليكم؟

قال القط: أيها الفأر؟ أمن مغرب الأرض آتيةٌ وليمتك؟

ثم قال القط في نفسه بعد ذلك: لن أتخلى عن هذا الأمر، ولو قطّعوني إرباً، صرفت نصف عمري في الاستماع إلى أحاديث الفأر التي تنضحُ حيلة ومكراً وتذلّلتُ، وحقّرتُ نفسي، علّني أقبض عليه وأمزّقه بأسناني...

(٢٤) كوكنار خانه: بيت الحشيش، كوكنار (خشخاش) وخانه (بيت)، وهي المكان الذي كان في العصر الصفوي كالمقهى يغلى فيه الخشخاش ويقدم شراباً كالشاي، وقد منع الشاه عباس شربه عام ١٠٣٠هـ قبيل وفاة البهائي بقليل، وقد أعيد إلى التداول بعد وفاة الشاه عباس (راجع: نصر الله فلسفي، زندكاني شاه عباس، أول ج١، ص ٢٧٥، وفرهنك فارس، ج٣، ص ٣١٢٩).

ما هذه الحياة التي تُضطرّك أن تتحمل سخرية كائن كالفأر؛ والله سأنجز هذا الأمر ولو صرفت باقي عمري من أجله.

«إما أن نعلّق عيون الخصم على رأس الرمح

ونصبغ نواصينا بدمائه

وإما أن نموت ميتة العزّ...»

القوة المتخيلة والنفس الأمارة

● أوضّح للأصدقاء، أنني كنت قد ذكرتُ قبل الآن أن الفأر: هو **النّفس الأمارة**، والقط: القوة المتخيّلة، التي تضلّ النفس بالتخيّلات الباطلة، وتلغي قوة العقل، وعند ذلك تتطاول على بيت القلب وتخرّبه في زمن قصير، وذلك حين تكون القوة المتخيّلة أقوى من النّفس الأمّارة..

بعد هذا ستسمع أن القط سيأخذ الفأر بالسياسة، وهذا يعني أن القوة المتخيّلة بدأت تتفوّق على النفس الأمّارة مستعينة بالعقل الذي هو صاحب البيت.

● وصلنا الآن إلى متابعة حديث القط والفأر.

سأل القط الفأر: أيها الفأر، أريد في هذه المباحثة أن أطرح عليك سؤالاً: ألك شيءٌ من العلم والمعرفة؟

قال الفأر: بلى! قرأت النحو والصّرف.

ـ سأل القط: ما هي صيغة «نَصَرَ»؟

قال الفأر: في الوقت الذي تنقل فيه قَدَمَك النّجس من هذا المكان، يكون النصر حليفي.

قال القط: لماذا لا تتحدّث صراحة أيها الفأر.

قال الفأر: تركك هذا المكان، نصر لي، وبما أن كلمة «نَصَرَ»، تعني أن أحداً ساعدني في الزمن الماضي، فعندما تذهب سأفهم معنى «النصر».

قال القط: أيها الفأر؟ ماذا بشأن الوليمة الموعودة؟

قال الفأر: أيها القط القليل العقل، أأنا في نظرك جاهل إلى هذا الحد؟ كيف أهبك ما يكفيني شهراً كاملاً لتأكله أنت في يوم واحد؟

ـ أتأكل مؤونتي لشهر في يوم واحد وأبقى أنا بلا زاد؟ وأضطر بعد ذلك أن أخرج من المنزل لتأمين طعامي، فأقع في يدِك؟

أما إذا احتفظتُ بمؤونة شهر، فسأرتاح في بيتي، وتقف أنت على عتبة بابي محتاراً... إبقَ ما شئت فلن تقع يدُك عليَّ، ألم تسمع أن جيشاً لجباً لا يستطيع احتلال قلعة طالما أن المؤونة فيها كافية!

قال القط: أنت! أيها الفأر! ألا تخجل من موقفك هذا؟

قال الفأر: أنا سعيد، لأنني أنفق بتؤدة وقناعة...

ما يأكله العدوّ يومياً بشقّ النفس

آكله في شهر بسعادة وبهجة وانشراح

● ثم بدا على الفأر أنه يفكّر بأمر ما.

فقال له القط: أيها الفأر؟ بماذا تفكر؟ ألا تريد أن تجيبني؟ أم أنك تودّ إحضار الطعام؟

قال الفأر: عبدُك الفقير أنا، لم أقم بعمل طيلة عمري قبل أن أستخير، والآن اصبر لحظة لآتي بالسّبحة من الداخل، وأستخير الله في حضورك، فإذا أتت الخيرَة موافقة، أحضر الطعام، وإلاّ فأنا أرجو أن لا تحمل فعلي على محمل البخل.

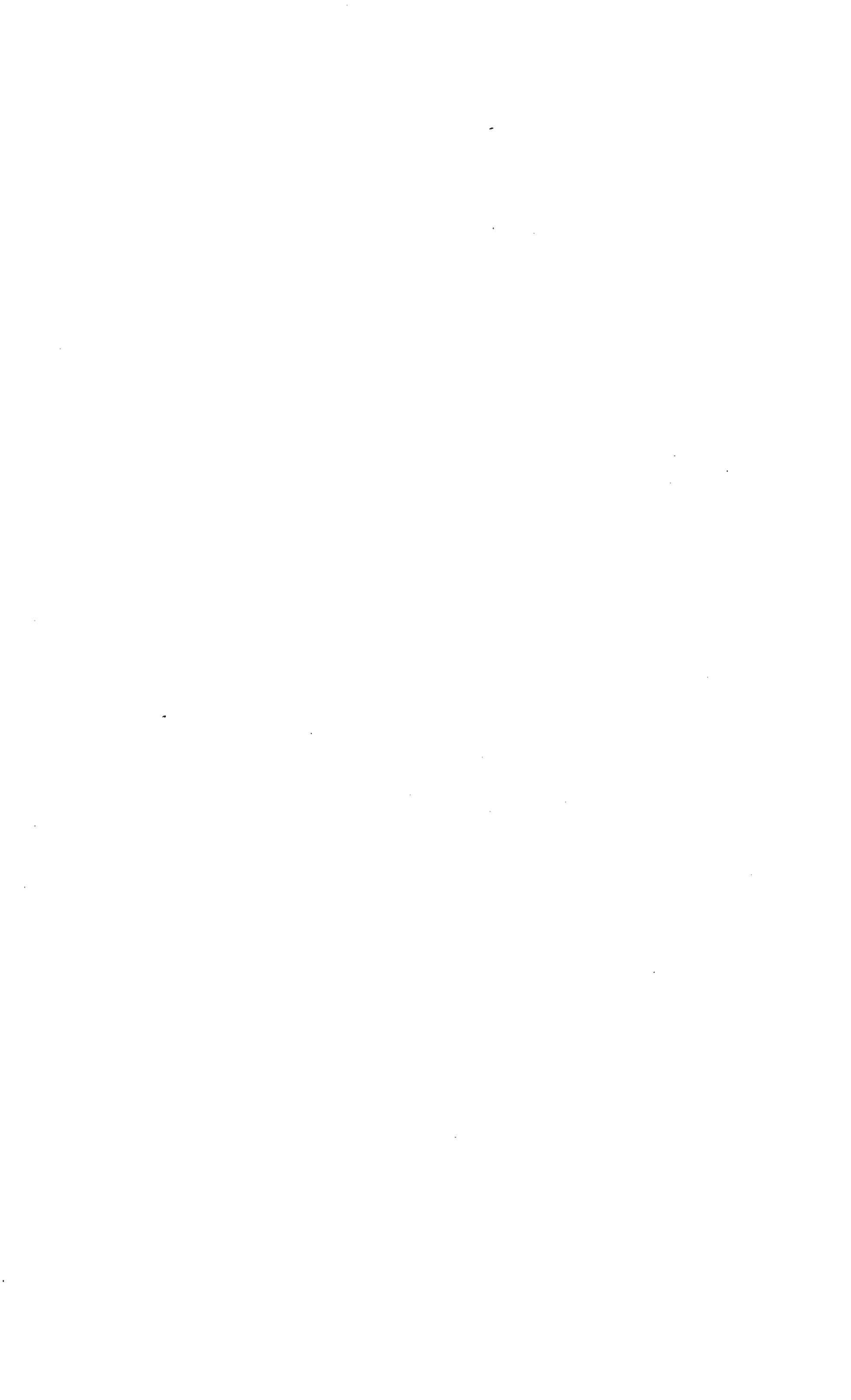
بعد ذلك دخل المنزل متذرّعا بأنه يريد إحضار السّبحة، ولأنه كان جائعاً فإنه أكل الخبز والحساء إلى أن شبع، ثم خرج، وقال للهر: استخرت الآن، فكانت النتيجة (لا تفعل)، وظني أن ذلك يعني أن الساعة ليست ساعة سعد، وأن القمر في برج العقرب، فانتظر ليصبح الوقت ملائماً، وعند ذلك أستخير مرة أخرى ونرى ما ستكون النتيجة!

قال القط: أيها السافل، أنا قمت بحساب الوقت[٢٥]، فوجدت أن القمر في برج المشتري، وهو متّجه نحو المريخ، وإذا بقي فيه مدة، فالبحر سيكون في يدك، ألا تعطيني منه قطرة؟

قال الفأر: في كل الأحوال، الساعة الآن ساعة نحس، إذهب، وفي وقت آخر إذا شئت أن تكون ضيفي، سأكون عبدك المطيع، وسأكون مُضيفُك من كل قلبي، إذا شاء السَّميع العليم.

قال القط في نفسه: إن ذهبت الآن سيقول الفأر، لقد سَخِرتُ من القط، وإن لم أذهب سيزداد هزؤه وسخريته، الأوْلى أن أعيد بناء المحادثة من جديد، لعل رب العالمين يمكّنني من وسيلة للقضاء عليه.

(٢٥) لقد كثرت في العصر الصفوي أعمال السحر والتنجيم. وكان الشاه عباس نفسه محاطاً بعدد من المنجّمين .. (راجع: بهاء الدين العاملي أديباً وفقيهاً وعالماً للمؤلفة، الباب الأول).



شحطات المتصوفة

ثم إن القط قال: أيها الفأر! ألديك خبرٌ عن التّصوف؟

قال الفأر: أنا ماهر في التّصوف إلى درجة عالية، فإذا استطاع شخص ما أن يدورَ دورة واحدة، فأنا أستطيع أن أدور ثلاثين أو أربعين دورة[٢٦].

قال القط: أتعلم عن التصوف الرقص والدوران فقط[٢٧]، أم أنك تعرف أموراً أخرى؟

قال الفأر: أنا أعلم جميع المتصوّفة وأقوالهم؛ قراءة الأوراد والاعتكاف، وقواعد الذكر، والإشارات، ورموز الكشف، والكرامات، والوصول، والوعد، والوجود الظاهري والصّوري والمعنوي، كلها قرأتُها، ولي إطّلاعٌ واسع عليها.

ـ أيها القط! ليتك تعرف شيئاً عن التصوف، فيكون لنا حديث عجيب.

---

(٢٦) و (٢٧) تتضح السخرية من المتصوفة الذين غلّبوا الطريقة والشكليات.

قال القط: إذا كنت لا أعرف الكثير عن التّصوف، فلا يعني ذلك أنني جاهل، ويمكن أن نتحادث إن كانت لديك رغبة.

قال الفأر: أنا جائع الآن، ولا أستطيع الكلام..

قال القط: نحن من أهل المدرسة، وأهل المدرسة وطالبو العلم اعتادوا على القناعة، وأنا كذلك تعوّدت أن لا أشكو حتى وإن لم أذق طعم الزاد يوماً كاملاً..

قال الفأر: أنا أيضاً من أهل التصوّف، وتلك الجماعة لا تقصّر في أكل «نعمة لله»، في جميع الحالات، في أثناء السلوك، أو الاعتكاف، يأكلون الحلوى، وأحياناً خبز الشعير والخل، وإذا كانوا في ضيافة أحد في المساء، يأكلون إلى الحد الذي تبقى فيه بطونهم مليئة إلى اليوم التالي(٢٨).

قال القط: أيها الفأر، أذكر حقيقة سلوكهم..

قال الفأر: سلوكهم لا غبار عليه..

ورد علىٰ خاطر القط غزلٌ بصدد تلك الجماعة:

الزاهد المقيم في خلوة هذه الكعبة

لا تغفل عن حيلته حين يدّعي أنه يتيم

أنظر إلى الكساء الذي يرتديه

إنه كالقمر البرّاق في نظر الفهيم

إذا ما زكمت أنفه رائحة الطّعام

فإن نار الجحيم تصبح في نظره جنة النعيم..

غناؤه ليس في ذكر الله ولا رقصه

---

(٢٨) الحسرية من تواكل أدعياء التصوف.

في رأسه شوق إلى غليان «الحليم»[٢٩]

في الادعاء هو فرعون زمانه

وفي المناجاة هو موسى الكليم

قال الفأر: الغِيبة وذمُّ أهل الله عمل مرذول.

ـ أيها القط: هؤلاء هم أهل الله، وهم أتقياء، وصفاتهم أكثر من أن تُحصى، وأوصافهم الحميدة تفوق الوصف، ألم تسمع أن بإمكان الواحد منهم أن ينتقل من هذا المكان إلى تركستان، ثم إلى العراق بخطوة واحدة؟ وضميرهم صاف من بركات العبادة والسرّ الإلهي، وهم على علم تامٍ بعيوب العالم الفاني، هم أولياء الله، السالكون إليه، لا يحيدون شعرة عن الطريق، ينتقلون بالعلم من مقام إلى مقام، إلى أن يصلوا إلى مرتبة الولاية.

قال القط: إروِ لي شيئاً عن كرامات المتصوّفة؟

قال الفأر: كراماتهم كثيرة وسأذكر لك خلاصتها:

من كرامات مشايخ خراسان، أن شجرة «فستق» تنبت فوق مزارهم بعد وفاتهم بزمن قصير، وعلامة مشايخ العراق إلى مريديهم وردة حمراء في فصل الشتاء، وهم يستخدمون الماء لإضاءة قناديلهم في المساء، ويمكنهم أن يطيروا في الفضاء في بعض الأحيان، أما مشايخ تركستان، فإن كل ما يتمنّونه ويريدونه يتحقق، وكرامات مشايخ ما وراء النهر أكثر من أن تُحصى، وليس بين العرب كشف وكرامات، ولكن الواحد منهم يتقرب إلى الله بالعبادة والنوافل، والسلوك، والاعتكاف، وقراءة الأوراد، إلى الحد الذي ينسى فيه

(٢٩) الحليم: نوع من الطعام مصنوع من الطحين والحليب.

وجوده المادي، ويتوجه نحو العالم الروحاني، وعندما يصلون فإن رموزهم لا عدّ لها ولا حصر، والحديث القدسي ظاهرٌ من آثارهم..

ـ أيها القط: لن تفيدك معرفة بعض الأمور عن التصوف، إن لم تصل أنت إلى مرتبة الكمال والوصال، وتنكشف أمامك الحجب.

قال القط: أيها الفأر، اذكر لي بعض أوصافهم؟

قال الفأر: أيها القط: إذا ذكرتُ لك كلمة واحدة، ستحسبني كافراً[٣٠] ومهما قلت لك فإنك لن تدرك حقيقة التصوّف، وستتعب نفسك دون فائدة، اسمع، لعلّني أوضّح لك الأمر بصورة تقريبية: مثل قطرة تصل إلى البحر فيعلم قدرها! نحن لا نعرف طعم الحلوى حتى نتذوقها.

قال القط: إذا أردت أنا أيضاً أن أجد شيئاً من هذه المرتبة ماذا عساني أن أفعل؟

قال الفأر: أيها السيد، أنت طالب علم، وطالب العلم والمتصوف لا يلتقيان.

قال القط: أيها الفأر، كل إنسان لا يحب طالب العلم، لا دين له ولا إيمان، وقد رُوي أن رسول الله قال: من أعان طالبَ العلم ولو بقلم مكسور، فستكتب له عدة حسنات في صحيفة أعماله، ومن ردّ طالب العلم، فإن الله يردّ أعماله كلها... ومن المعروف أن أهل هذه الفرقة [المتصوّفة]، لا يصلّون ولا يصومون، وتاركو الصلاة والصيام، لا قيمة لأعمالهم.

قال الفأر: لِمَ؟

(٣٠) إشارة إلى التفكير المتبادل بين الفقهاء والمتصوفة في عصر الكاتب.

قال القط: يجب أن تكونَ أيها الفأرُ منصفاً، وتضع التقليد والتعصّب جانباً، وتعلم أن ربّك حاضرٌ ناظرٌ، وتدرك أن المتصوّفة حمقى، متعصّبون، لأن كل من رفض العلماء، رفض الأئمة والرسل، ورفض أوامر الله ونواهيه، وأنكر كتبه، وأنكر وجود الملائكة والبعثَ والنشورَ والثّواب والعقاب، والحشر والنَّشر والميزان والصراط..

قال الفأر: أيها القط، منازل الصوفية أقرب إلى الله من منازل العلماء.

قال القط: لِمَ؟ إشرح لنفهمَ؟

قال الفأر: مراتب الفقر والسلوك والتعلّق بين أهل الله وخلق الله، سبع مراتب، المرتبة الأرفع هي مرتبة المتصوّفة.

قال القط: من أين لك علم هذا الأمر؟

قال الفأر: أنصت لأوضح لك:

أولاً: العلماء، **ثانياً**: الصالحون، **ثالثاً**: أهل السلوك، **رابعاً**: أهل العرفان، **خامساً**: الخائفون، **سادساً**: أهل الصدق، **سابعاً**: أهل العشق.

هذه المراتب السبع التي سمعت، أولها للعلماء، والمراتب الست الباقية للصوفية، وذلك بفيض الأنوار الإلهية...

منذ الليلة التي حولّت فيها قطرةُ العشقِ تراب العالم وردةً

حَصَل في الدنيا مئة فتنة وجذبة

وحين ضرب العقلُ والعشقُ فألاً معاً

سالت قطرةٌ منهما فكان القلب

لقد صار معلوماً لديكم أن مرتبة العشق للمتصوفة، ورتبة العقل للعلماء، وأينما فرش العقل بساطه، هدمه العشق وخرّبه دون عناء.

في الوقت الذي يفتش فيه العاقل عن جسرٍ ليعبر الماء

يسير المجنون فوق الماء حافيَ القدمين..

ليس في العشق علوّ وانخفاض، ولا حرّ أو برد، ولا بعيد أو قريب، ولا قليل أو كثير، ولا نفع أو ضرر.

ـ أيها القط: إن حدود أوصافهم أبعد من أن يستطيع إنسان حصرها أو توضيحها.

لليس للمريد إلاّ أن يتبع أستاذه [المرشد] لتكون مرتبةُ الوصال من نصيبه، وإلاّ فإنه لن يستفيد من العمر الذي يقضيه في المدرسة يحفظ ويكرّر: (ضرب، يضرب، ضرباً، ضربت، ضربتما، ضربتم)، إلاّ الحيرة، لأن طريق العالِم بعيدة، وطريق الصوفية هي الأقرب إلى الله، لأنه في كل لمحة بصر، يتجلى جمال الله في عين السالك العاشق، أما إيجاد هذه المراتب من طريق العلم التقليدي فمحال، وقد قيل:

قدمُ الإستدلاليين خشبيةٌ

والقدمُ الخشبية قاسيةٌ، غيرُ طيّعة

وهنالك غير هذا كلام كثير، لا يعلمه إلاّ من يجالسهم ويخالطهم.

قال القط: ألديهم خبرٌ عن المعرفة الإلهية؟

قال الفأر: إن كانوا لا يعرفون الله، كيف يعبدونه إذاً؟ وكيف وصلوا إلى تلك المراتب؟ حتما! هم يعرفون ويعلمون.

قال القط: أيها الفأر: أتعرف أيضاً شيئاً عن أوصافهم وأخبارهم

وآثارهم، وأساليبهم وأقوالهم؟ أخبرنا، لعلّنا نحصّل مهارة في هذا الباب.

قال الفأر: ليس من السّهل توضيح أسرارهم، وذلك لأن سلوكهم، ورياضتهم وتواضعهم وصبرهم يفوق الحد والوصف.

من جملة ذلك أن الحسين بن منصور كان حلاّجاً، وبسبب حِلمه وتستره على هفوة امرأة عجوز توصّل إلى المرتبة التي تعرِف وقال: «أنا الحق».

كما أن أحد عظماء الصّوفية في بغداد استطاع لكثرة تهجّده وسلوكه، أن يصل إلى مرتبة عالية في عالم القرب والوصال، دفعته إلى أن يقول: **«ما في جبّتي سوى الله»**، ومن شدة الألم والتعب، ومن كثرة الرّياضة والعبادة، قال: **«سبحاني ما أعظم شأني»**، ولم يصل إلى هذه المرتبة إلاّ بالعبادة المحضة، وقد قيل كلامٌ كثير من هذا القبيل.

قال القط: حسناً فعلت أيها الفأر، إذ أطلعتني على مراتبهم، لم يبقَ إلاّ أن يكونوا كفرعون لأنهم ادّعوا مثله..

قال الفأر: أيها الملك، أو تحسبهم أقل من فرعون؟ فرعون ادّعى الربوبية، وهم أيضاً فعلوا، لماذا لا تستطيع أن تدرك كنه الأمور وجوهرها؟ أو تظنهم أقل من فرعون؟ هم قالوا: «ما أعظم شأني» و«ليس في جبتي سوى الله» و«أنا الحق» وأمثالها، من يوم الوصول [إلى معرفة الله]، إلى يوم الوفاة، وفرعون قال مرة واحدة «أليس لي ملك مصر»؟ ومرة أخرى قال: أنا ربكم الأعلى».. بناء على هذا فإن رتبتهم فوق مرتبة فرعون، ومنزلتهم أعلى من منزلته..

قال القط: أيها الفأر: على ذكر المتصوفة الذين نذروا العبودية،

وميزوا أنفسهم من الناس بالظن الخاطىء، فقد خطرت لي حكاية تناسب، حديثك عنهم:

- رُويَ أن تاجراً ذهب إلى مدينة أصفهان ليبيع قطيعاً من الغنم ولكثرة التجار وكثرة الأغنام في سوق المدينة، لم يستطع بيع خروف واحد. لذلك حمل هذا التاجر أغنامه إلى قرية قريبة وباعها كلّها بالدّين، وبعد أن ارتاح من همّ القطيع قال في نفسه: لن أستطيع استيفاء الدين بسهولة. إلاّ حين أصبح سيّد هذه القرية، ولأصبح سيّد القرية يجب أن أصاهر أهلها، لذا أرسل دلاّلاً يخطب له ابنة أحد وجهاء القرية، فطلب قومُها رؤيته، فقال له الدلاّل: إن لحيتك بيضاء وثيابك قذرة، يجب أن تذهب إلى الحمام، وتتخضّب وتتطيّب، وتلبس ثياباً نظيفة، لأصطحبك إلى أهل العروس.

ذهب تاجر الأغنام إلى الحمّام وطلب خضاباً ودواء لنزع الشعر، ولشدة حمقه لم يسأل، إن كان هذا الدواء للحيّة أم لمكان آخر، فأمسكه ودهن به لحيته وشاربيه، وبعد دقائق صبّ الماء ظنّاً منه أن لحيته قد صُبغت، فما كان إلاّ أن رأى شعر لحيته وشاربيه قد أزيل، وهو لا يزال يظن أن الخضاب يكون على هذا النحو وهذا المنوال.

بعد خروجه من الحمّام، دخل دكّان الحلاقة وجلس على أحد المقاعد، وطلب إلى المزيّن أن يصلح هيئته؛ لما وقع نظر المزيّن عليه، قال له أشربت كيفاً؟ ظن الأحمق أنَّ من لا يشرب كيفاً لا يصلحون هيئته، فقال: نعم.. فأعطاه المزين مرآة لينظر إلى نفسه فيها، فلم يرَ أثراً للحيته أو لشاربيه.

● والآن أيها الفأر: المعرفة دون تعقّل وفهم، مثلُها كمثل صبغِ الأحمق لحيته بالزّرنيخ..

ـ أيها الفأر: إذا كنت تحبُّ المتصوفة! اسمع هاتين الكلمتين الأخيرتين في باب كرامات متصوّفة خراسان.

ـ قيل إن عراقياً من الرعاع، سافر إلى خراسان، وفي أثناء الطريق صادف سيداً خراسانياً من أكابر القوم متوجهاً إلى منزله، وهو يحمل منديلاً فيه بعض الثمار، حين وقع نظره على الرجل قال في نفسه: يجب أن يكون هذا الرجل من أهل الله؛ طلب إلى الرجل أن يقترب منه وقال له: أيها الرجل إذا عرفت ما في هذا المنديل، أعطيك هذه الإجاصات، أما إن عرفتَ عددها، فسأعطيك الإجاصات التسع.

عرف العراقي ما في داخل المنديل، وعرف العدد، فقال: أيها السيد! في منديلك إجاص وعددها تسع، فأعطاه الخراساني المنديل بما فيه وقال: إن هذا الرجل من أهل الكشف والكرامات، يجب أن أصطحبه إلى منزلي لأتبارك منه.

● ماذا أيها الفأر: إن الإنسان الذي يصل إلى هذا الدرك من الجهل والغباء، ولا يعرف أن شجر الفستق ينبت بكثرة في أرض خراسان كلها، كيف يمكن أن يكون صاحب كشف وكرامات، فإذا كان مشايخ خراسان أصحاب كشف وكرامات يجب أن تنبت على قبورهم أشجار لا تناسب أرض خراسان، ليكون في الأمر معجزة، أما أن تنبت أشجار الفستق بكثرة فلأن الطيور تنقل اللقاح في مناقيرها، وتوصله إلى الأطراف فينبت شجر كثير على هذا المنوال،

وهذا الأمر ممكن بالنسبة لأي شجرة أخرى تحمل حبّاً يمكن أن تنقله الطيور..

ـ الناس الذين لا إدراك لهم، ولا يعرفون أن إخراج البيضة من الكيس شعوذة، يحسبون من يقوم بهذا العمل ولياً من أولياء الله..

● ذكر أن رجلاً من «كردستان»[٣١] صعد شجرة وجلس على أحد الأغصان، وأخذ يقطع أصل الغصن، وهو كذلك مرّ شخص في تلك الأنحاء، لما رأى ما يفعل، قال له: أيها الأحمق كيف تجلس على طرف الغصن تقطعه من أصله، لم يلتفت الأحمق إليه، وتابع عمله، ولكنه بعد أن وقع على الأرض صرخ: أنت؛ أيها الرجل صاحب كرامات، كيف عرفتَ أنني سأقع؟ ولما نفى الرجل كونه صاحب كرامات، تعلق الأحمق بأذياله، أكثر وقال: أنت إذاً إمام! هذا التواضع لا يصدر إلاّ من إمام، وأقسم الرجل أغلظ الإيمان، أنه ليس ولياً ولا إماماً فلم يقبل منه.

ـ أيها الفأر: إن هؤلاء الذين يعتقدون بكشف الغيب والكرامات على يد مشايخ الصّوفية والأولياء، لا عقل لهم ولا شعور، وفي ظنّهم أنهم يسعون، وأنهم يحصلون المعرفة.

ـ أيها الفأر: يجب أن تعاني الكثير من التعب والألم في خدمة علماء الدين، لتتعلّم **مسألة عقلية واحدة**، كي لا يعدّك الناس جاهلاً، قليل الإدراك؛ هؤلاء الذين أصبحوا علماء، تعذّبوا كثيراً في طريق الوصول.

---

(٣١) لرستان: إحدى نواحي إيران الغربية، تقع بين جبال ألوند وكرمانشاه والصحراء البختيارية والعراق العربي؛ وهي مركز قبائل «لُر»، من مدنها المهمة الآن: خرّم آباد، وبروجرد، وكلبايكان (**فرهنگ فارسي**، ج٦).

ـ أيها الفأر: أنت تصدّق كل ما يقال، ألا تعرف أن كل من يقيم دعوى، فدعواه باطلة ما لم يأتِ بشاهد إثبات.

ـ أيها الفأر: أولئك الذين يدّعون جزافاً معرفة الله، مثلهم كمثل ذلك الثعلب «الحاج».

ـ يُروى أن في «أردستان»[٣٢] كثيراً من الثعالب، بالنسبة إلى سائر البلدان، لأن تلك الأرض غنيّة بالرمان، والثعالب تحت كسر الرمان وإتلافه؛ خاف أهل «أردستان»، وتوهموا أنهم إن هم أغضبوا الثعالب، فإنها ستدخل بساتينهم، وتتلف رمانهم، لذلك أظهروا اللين والاحترام للثعالب، إلى درجة أنها صارت تدخل البيوت، وتأكل ما تصل إليه أيديها، دون أن يجرؤ أحدٌ على نهرِها أو طردها.

وشاءت الصدف، أن يمر ثعلب في أحد الطرقات، وإذا به يسمع صوتاً مهيباً، فاضطرب واحتار وخاف كثيراً؛ كان مصدر الصوت إبريقٌ عتيقٌ مرميٌ في إحدى الزوايا، كلما حرّكته الريح أصدر صوتاً قوياً... أخذ الثعلب ينظر حواليه، وهو مسمّر في مكانه، لأنه فقد القدرة على الحركة، واتفق أن مرّ به ثعلبٌ آخر، وكانت الريح قد سكنت، وسكن معها الصوت المخيف، ولما رآه محتاراً خائفاً، متصلباً، يلتفت يمنة ويسرة، سأله عن سبب خوفه واضطرابه، فقال له الثعلب الخائف: إنني نظرت في «الاسطرلاب»[٣٣] وتبين لي أن

---

(٣٢) أردستان: مدينة تقع بين كاشان وأصفهان، تبعد عن أصفهان ١٨ فرسخاً (... كلم).

(٣٣) الاسطرلاب: أو الاصطرلاب لفظة يونانية مأخوذة من كلمة (الاصطرلابون) ومعناها مرآة النجوم (فأصطر) معناه النجم و(لابون) معناها مرآة، وقيل إنه لفظة فارسية، أصلها (ستارة باب)، وأقسام الاصطرلاب كثيرة، منها ذات الحلق المؤلفة من دوائر نحاسيّة، وهي دائرة نصف النهار، ودائرة معدّل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ومن أشكاله: المسطح والتام والكروي والهلالي: (أنظر: لغت تامة، ج٣، ص ٢٢٨٧ ـ ٢٣٠١). والكشكول، ج٢، ص ٢٢١.

أسوداً ستهاجم هذا المكان في الأيام القليلة القادمة، وستقضي على كل الثعالب، ويفضل أن نذهب أنا وأنت من هذا المكان؛ وسبب كذب هذا الثعلب أنه كان لا يريد أن يعرف الآخر سبب خوفه، فيسيران معاً، وإذا كان في الجهة التي يصدر منها الصوت مضرّة، يهرب هو، ويعلق الثعلب الغافل في المصيدة، وبهذا الخيال، وهذه النيّة، سارا في الطريق معاً.

ـ وكان الثعلب الخائف كلما سارا قليلاً يقف، ويصيخ السّمع، ثم يعاودان المسير، فقال له الثعلب الآخر، أيها الصديق العزيز! ما لي أراك كثير التأمل والتفكير؟ قال: لأنني أعتقد أن في تلك الناحية طعاماً وأشار إلى مصدر الصوت المخيف. فأسرع الثعلب الغافل حيث أشار الأول مفتشاً عن الطعام، أما الخائف المحتال فقد ركض في الاتجاه الآخر؛ ولم يكن هنالك أثر للطعام... وبعد البحث والتفتيش عادا والتقيا معاً، وتابعا المسير إلى أن وصلا إلى رأس تلة؛ ظن الثعلب الخائف أن وراء التلة بحراً ـ ربما كان هو مصدر الصوت ـ لذلك دعا الثعلب الآخر إليه وقال له؛ يجب أن تنتظر قليلاً لأنظر في الرمل، ثم رفع رأسه بعد مدة وقال: يبدو أن ما أرآه في الرمل يجب أن يكون أسداً، تعالَ نذهبْ من هنا.

قال هذا وركض، أما الآخر فإنه فرّ مسرعاً، ومن شدة الخوف لم يلتفت وراءه إلى أن خرج من الصحراء، فاستغل الماكر الفرصة، وعاد إلى مكان الصوت فرأى الإبريق المكسور، فعلم أن الصوت الذي كان سبب هَلَعِه صادر من ذلك الإبريق.

ومن شدة غيظه، وبسبب ذلك الصوت الذي أخافه وسبّب له كل تلك المتاعب، أمسك الثعلب الإبريق وهو يقول له: أقسم بليلة السهر والعناء، أنني لن أهدأ حتى أضيقك شرّ البلية، ثم دحرج

الإبريق بعد أن ربطه بذنبه، إلى شاطىء البحر حيث رماه في الماء، وهو يقول له: مهما تأوهت وتألمت، فإن ذلك لن ينفعك إن لم أغرقْك.

والخلاصة: إن الإبريق امتلأ، فثقل وزنه وسحب معه الثعلب إلى الأسفل، لما رأى الثعلب أنه قد بدأ يغرق، اضطرب، ولم يجد وسيلة للخلاص إلاّ بقطع ذنبه.

لهذا، وبعد تعب شديد، ومشقة عظيمة، استطاع أن ينجو ويخرج من الماء، بعد أن غرق ذنبه مع الإبريق، وركض عائداً وهو يقول في نفسه: «عجيب، كيف انقذت روحك»؟ ثم فكر بعد ذلك أن من المخجل أن يراه أصحابه وهو على ذي الحال، وأن من الأفضل أن يختبىء في مكان ما كي لا يراه الناس، فتقدّم بتؤدة وحذر، إلى أن وصل إلى سوق القرية، قرب دكان صبّاغ، فدخل من النافذة، وقفز، فوقع في دنٍّ مليء بالصّباغ الأزرق، في هذه الأثناء كان الصّبّاغ في الخارج، ولما رجع وفتح الباب، هرب الثعلب من النافذة، وقد قرر أن يقول لمن يستفسر منه عن سبب قطع ذنبه وارتدائه ثوباً نيلياً، أنه قد حجّ إلى مكة، وبما أن مكة هي مكان الاختبار، وبما أن كثيرين ممن يحجّون تُجعل سيئاتهم حسنات، لذلك فإن اللون النيلي علامة قبول «حجته».

بعد أن أخذ الثعلب هذا القرار ـ بأن يصبح «حاجاً»، قَدِم على جماعته وأخذ يحدّثهم عن المشاق التي تحمّلها في طريق الحج، والظروف الصّعبة التي أدت إلى قطع ذنبه، فكان أضحوكة العقلاء ومعرض سخريتهم، أما أولئك الأغبياء الذين هم أضلّ من الأنعام فقد أظهروا له كل التعظيم والاحترام.

حماقة الثعلب المقطوع الذنب، هي ذاتها حماقة أدعياء التصوف الذين أضلّوا الناس، وادعوا الكشف والكرامات زوراً وبهتاناً، ولم يسمع أحد منهم طيلة حياتهم كلمة صدق واحدة، فبدون الخجل والتواضع وخشية الله لا مكان للكشف أو للكرامات؛ هم لا يقصدون من ادعاءاتهم الكاذبة سوى ملء بطونهم على نفقة الهمج الرعاع:

● يُحكى أن شيخاً من أدعياء التصوف، كان مع جماعة من مريديه متوجهاً إلى إحدى القرى، وفي أثناء الطريق رأى رجلاً خارجاً من بستان وهو يحمل على رأسه سلة، فقال الشيخ في نفسه، إن الفرصة مؤاتية لإظهار الكرامات، وبما أن معظم أهل القرية يُدعون «رئيس حسين»، و«رئيس عز الدين» و«خالو قاسم»، فإن لهذا الرجل صاحب السلّة أحد هذه الأسماء، وفي سلته فاكهة حتماً: فإذا تحقق هذا الأمر، ستظهر لك كرامات عجيبة، وسيكون طعامك على العامة الجهال، وستكسب شهرة عظيمة؛ وتوجه نحو الرجل وقال: يا رئيس عز الدين، يا رئيس حسين، يا خالو قاسم شهريار، لما سمع الرجل النداء، التفت دون أن يشعر وراءه، فرأى الشيخ ومريديه، ولما اقترب منهم قال له الشيخ:

ـ أحضر سلّة الفاكهة التي تحمل لنتذوّق ما فيها.

ـ تقدم الرجل منهم وقال: أيها الشيخ، أنا اسمي (العم عيد) وما في سلتي ليس فاكهة.

قال الشيخ في نفسه: إن هذا الرجل كاذب، فلو لم يكن هذا اسمه لما أجاب، ولكنه يبخل علينا بفاكهته، أو أنه يتصور أنني بلا كرامات. لذلك قال: أيها الرجل، لقد أخبرتُ أن ما في السلة من

نصيبي أنا وأتباعي، وأنت تكذب وتدعي أن اسمك «عيد» وتنكر وجود الفاكهة في سلتك كذباً وبخلاً.

- أقسم الرجل، وقال: عجباً أيها الشيخ، والله لو كان في هذه السلة فاكهة لأعطيتها لكم دون تردد.

قال الشيخ: أيها الرجل؛ ضع هذه السلة أرضاً لنرى بأنفسنا إلى ما فيها...

- امتنع الرجل عن وضع السلة على الأرض لأن ما فيها يسبب له إحراجاً.

قال الشيخ: بكل تصميم وعزم: أُلهمتُ أن السلة من نصيبنا، فلا تشكك أيها الرجل بقولنا وضع السلة!

- وجد الرجل أن لا مفرّ، فوضع السلة على الأرض، وقد كانت مليئة بروث الدواب الجاف، جمعه الرجل من البستان ليأخذه إلى بيته.

- رأى الشيخ الروث، ولكنه لم يتراجع عن موقفه أمام مريديه، لذلك قال لهم: أيها الأبناء، ليشرع كل من تلألأ في قلبه نور العشق، بالأكل، فيعلم ما فيه من لذّة.

بدأ المريدون بأكل الرّوث، وهم يمتدحونه طعاماً لم يعرفوا له مثيلاً في حياتهم . واحد يقول: إنها رائحة المسك تعطّر المشام، وآخر يقول: لو كان للعنبر مثل هذه الرائحة، لما استبدل بمئة مثقال ذهباً... وثالث يقول: لم أتذوق في حياتي حلوى لها مثل هذا الطعم.

وفي كل حال: هم أقل من الكلاب، يأكلون الرّوث ويمتدحونه.

قال الشيخ في نفسه: كل من تذوّق من هذا ولم يفسد إيمانه بي، سيصفو باطنه حتماً، وسيقوى على تحمّل الجوع والعطش.

ـ أيها الفأر: لا أعلم! إن كنت أنت في المدة التي قضيتها مع أدعياء التصوف قد أكلت بعض هذه اللقيمات اللذيذة أم لا؟

ـ إسمع أيضاً هذه الحكاية:

● زعموا أن مريداً ذهب يوماً إلى شيخ من مشايخ قريته وقال له: أيها الشيخ إن امرأتي حامل، ليتك تدعو الله يرزقني ولداً بكرامة أنفاسك.

قال الشيخ: إذهب واحضر عدّة بطيخات ناضجة مع جبن وخبز ليأكل «أهل الله»، ويدعون لك.

قال الرجل: أمرك مطاع! ثم ذهب وأحضر الخبز والجبن والبطيخ. بعد أن التهم الشيخ ومريدوه الطعام، أخذوا يدعون للرجل، ثم قرأ الشيخ الفاتحة، وقال: اطمئن أيها الرجل: إن الله تعالى سيكرمك بصبي، سينخرط وهو في العاشرة في سلك المتصوفة.

بعد أشهرٍ وضعت زوجة الرجل بنتاً شوهاء، قبيحة الصورة، فحزن الرجل كثيراً، وتوجّه إلى مقام الشيخ، وكان جميع مريديه حوله، وقال له: أيها الشيخ لم يعطِ دعاؤك لي أي أثر، لقد أكّدت لي أن الله سيكرمني بولد، وها امرأتي قد وضعت بنتاً قبيحة مشوّهة.

قال الشيخ: هذا يعني أن الطعام الذي أحضرته لأهل الله كان على كرهٍ منك، ولو أنك أحضرته راضياً، صادق النيّة والعزم، لكانت ولداً. فلتطمئن نفسك على أي حال، لأن هذه البنت ستنفعك أكثر من الصبي، وقد رأيت في إحدى خلواتي أنها ستكون علاّمة عصرِها.

بعد هذا الحوار بشهرين ماتت البنت، فجاء الرجل إلى الشيخ وقال: يا شيخ! ماتت البنت، أين أثر دعائك؟

قال الشيخ: نحن قلنا إن الفتاة ستنفعك أكثر من الفتى، فلو أنها بقيت على قيد الحياة، لزادت مشاغلك الدنيوية وهمومك، ومن الأفضل أن رَحِمَك المولى وأراحك من همّها.

ويُروى أن مريدي الشيخ، ما إن أنهى كلامه حتى نهضوا دفعة واحدة، وارتموا على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون: ليحفظك الله عزّ وجلّ بمشيئته، لقد وهبتنا حياة جديدة، والحق أن كلام المرشد الكامل(٣٤)، ليس أقل من كلام المسيح، لأن من أفاضت عليه روح القدس مدداً، يمكنه أن يعمل عمل المسيح. لله المنّة والحمد، أننا أنرنا طريق أحد الناس وأعلمناه ما في الغيب.

ـ أيها الفأر: كشف المتصوفة وكراماتهم على هذا النحو الذي سمعت.. أما إذا كنت أنت قد سمعت أو قرأت أكثر من هذا عن كراماتهم فاحكِ لنا ونوّر قلبنا وعقلنا.

قال الفأر: أيها القط! وضعت نفسك في دوامة العتاب والعناد والمكابرة، لقد عارضتني في ما أقول، وحيّرتني وأخرستني.

قال القط: أيها الفأر! أنا لا أعاند، إنما أوردُ الأدلة والبراهين، أقسم أنني لم أذكر إلاّ القليل القليل حتى الآن، ولكنني أودّ أن أسمع ما يجول في خاطرك، وبعد ذلك أوضّح لك أغلاطهم وادعاءاتهم،

(٣٤) المرشد الكامل: ... إن مجاهدات المتصوف الأساسية ثلاث: مجاهدة التقوى، ومجاهدة الاستقامة، ومجاهدة الكشف، وهذه المجاهدة الأخيرة ثمرة ما قبلها من مجاهدات، ولا بد فيها من الاقتداء بشيخ سالك هو المرشد الكامل، يكون قد خَبِرَ المجاهدات، وقطع الطريق إلى الله وارتفع له الحجاب، وتجلّت له الأنوار. (أنظر: ابن خلدون: شفاء السائل، صث ٤١).

وأنصحك من باب الصداقة وحدها، أن تعرف أن القفز والدوران والسّماع والكذب ليس من العقل والكرامة، إنما هو طفولة وحماقة.

ـ أيها الفأر: اذكر لنا ما سمعته عنهم، وبعد ذلك إقبل مني ما أشيرُ به عليك.

قال الفأر: أيها القط! اسمع كرامة أحد مشايخ خراسان.

قال القط: تفضّل، ولكن لمَ لا تصف المشايخ وتذكرُ أسماءهم؟

قال الفأر: التسمية ليست ضرورة.

ـ كان لأحد مشايخ خراسان مريد اسمه مجد الدين، وكان الشيخ يحبُّ المريدَ حباً جماً، وكان المريد صالحاً عاقلاً، ويوماً أغضب المريدُ الشيخ، وكان الشيخ في مرتبة التجلي، وهذه المرتبة تستدعي التعظيم والإجلال، فقال الشيخ غاضباً: إذهب: في الماء! أي مت غرقاً في الماء...

وتشاء الصدف أن يذهب المريد برفقة بعض أشراف خراسان إلى منزل السلطان، وكان للسلطان ابن جاهل، حاد الطباع، متسلط، وكان في حالة من السكر الشديد، ما إن رأى المريد حتى أمر أتباعه أن يرموه في بركة الماء، وبما أن أحداً ما كان يجرؤ على الاعتراض فقد مات المريد غرقاً.

في الصباح علم الشيخ بالأمر، وعرف أن مريده مات غرقاً غضب وقال: دم مجد الدين، دم خراسان، دم مجد الدين دم العراق، دم مجد الدين دم بغـ... وقبل أن يكمل الكلمة ويقول «بغداد»، وضع أحد تلاميذه يده على فمه؛ وقال: أيها الشيخ لقد خرّبت العالم..

وبما أنه قال (بغ) ولم يقل (داد)، فانه لم ينقضِ زمن قصير حتى ظهر هولاكو خان، وفعل ما فعل من قتل عام وتخريب، وتدمير، كل هذا كان بسبب دعاء الشيخ.

ـ أيها القط: ما هو رأيك بما ذكرتُ؟ قل ما تشاء، ولا تظنَّن بأهل الله سوءاً، ولا تنظر إليهم بعين الحقارة، ولا تغرَّنك معرفتك وعلمك.

ـ أيها القط: لمَ لا نسير معاً على جادة الأخوّة الصحيحة، وتترك أنت العناد واللجاج؟

قال القط: أيها الفأر! يجب أن يعرف كل حيٍّ حدوده فلا يتجاوزها، وأن يضبط على أساسها حاله وماله وأسباب معيشته، ويجب أن يتحلى بالتأمل والتفكير، وحسن التدبير، ليتميّز في الدنيا على أقرانه، ويفتخر في الآخرة بفعل الخير، وأن يدقّق يوماً فيوماً بحاله ومآله، وأن يترك الفعل المشين، وهذا الأمر مبني على أمرين اثنين: إما على العقل وإما على النقل...

فأما عقلياً فإنه يجب أن يدقّق ويتأمل في كل ما يرى وما يسمع، وإذا صادف أحياناً وقصّر من إدراك حقيقة ما سمع وما رأى، فإنما يجب أن يسأل العلماء ليطمئن، لأن كثيراً مما نظنّه صحيحاً هو باطل بنظر العلماء، وأمور كثيرة تبدو لنا باطلة، هي صحيحة في نظر العقلاء وأهل الرأي.



ـ والآن، سأشحذ مخالبي، وأمزّقكَ إرباً، وأجعل جسدك طعاماً للثعالب الضّالة، كي لا يتجرأ أحدٌ من أبناء جنسك بعد الآن، فيظلم أحداً من أبناء جنسنا.

قال الحطاب المسكين وهو يرتجف فَرَقا: يا ملك السّباع، وسيد الأبطال الشجعان، إذا عاملتني بقسوة دون أن تعطيني فرصة الدفاع عن نفسي، فلن تعدَّ بطلاً، ألم تسمع قصص الأبطال؟ إذا كان الخصم حقيراً، ضعيفاً، ذليلاً، فإن العفو عنه عند المقدرة عليه، يعدُّ رجولة ومروءة، وإذا كان احتمال العفو ضعيفاً فإن الرجولة تقتضي إمهاله إلى حين ليحضّر نفسه، كما يُعطى سلاحاً ليكون مستعداً للمبارزة، لأن من شروط البطولة أن لا تقتلَ خصماً غير مستعد.

قال الأسد: يا ابن آدم! مستحيل، أن أفلتك من يدي، ولكنني أعطيك مهلة لتهيئة أدوات الحرب.

قال الحطاب: أيها الأسد! أنا لا أملك أسلحة هنا، ومن أين لي بها في هذه الصحراء؟ ما أملكه موجود في بيتي..

قال الأسد: إذهب إلى بيتك واحضر أسلحتك.

ـ هدأ روع الحطّاب حين سمع هذا الكلام، وأخذ يفكّر بوسيلة يخلّص بها نفسه من يدِ هذا العدوّ السفّاك.

ـ بعد ذلك قال للأسد: أخاف أن أتعب في الذهاب إلى البيت وإحضار الأسلحة، فتستغل أنت غيابي وتهرب، فيذهب سعيي باطلاً.

قال الأسد: أقسم لك الإيمان الذي تريد، أن لا أغادرَ مكاني هذا إلى أن تعود.

العقل سيد الأحكام

● «يحكى أن هراً كان يتجوّل على غير هدىً، إلى أن وصل إلى صحراء بعيدة، وهنالك فوجىء بأسدٍ هصور، لما رآه الأسد سار في طلبه، وأظهر له عطفاً شديداً، ومسح على رأسه وأذنيه قائلاً: أيها القط المسكين، أنت من أبناء جنسنا، ولكنك ضعيف عاجزٌ ونحن أولي بأس وقوة! إن ما أوصلك إلى هذه الحال هو الضّرر الذي ألحقته بك أذيّة بني آدم.

قسماً! إن العالم مليءٌ بالفتن والفساد من مكر ابن آدم وحيله! آه! ما ألطف أن يقع واحد من أبناء آدم في يدي لأنتقم لك منه.

وصادف أن حطاباً كان في تلك الفلاة يجمع حطباً، ما إن وقع نظر لأسد عليه، حتى أسرع نحوه، ولما اقترب منه خاطبه وعنّفه، وأكثر من عتابه، فاحتار الحطّاب المسكين وأخذ يرتجف، فوقعت الفأس من يده، ولبث في مكانه حائراً مضطرباً.

قال الأسد: يا بني آدم! لقد سخّرتم العالم لمصلحتكم، وأصبحتم مغرورين ظَلَمة، إلى درجة أن أحد أبناء جنسنا [يقصد القط]، جاء إليكم، فأوصلتموه إلى هذه الدرجة من الضعف والهزال..

قال الحطّاب: أيها الملك! إذا كنت صادقاً، وتريدني أن أذهب مطمئن البال، اسمح لي أن أربط يديك ورجليك بهذا الحبل إلى جذع شجرة، ثم أذهب لإحضار سلاحي، وعندما أعود، أحرّرك، ونتبارز.

ـ أيها الملك! أعذرني إذا كان في كلامي هذا شيء من الوقاحة وقلّة الأدب، ولكنني أعرف أن الملك يتحلّى بالمروءة والشجاعة، مما دفعني إلى أن أتجرأ وأطلب ما طلبت، وللملك الخيَرَة في النهاية!

قبل الأسد عرض الحطّاب على الرغم من وحشيته، وحيوانيته، وقال: ربما خطر ببالك يا ابن آدم، أنني خائف من إحضارك السلاح؟ تعالَ لأقسم لك على ما تشاء، واذهب بسرعة واحضر سلاحك للمبارزة.

ـ تقدم الحطاب، وهو في أوج الخوف والرعب، وربط يديّ الأسد ورجليه بالحبل ـ الذي كان يحمله لربط الحطب ـ ربطاً محكماً.

بعد أن فرغ من تقييده، عاد إليه رَوْعه بعد القلق والخوف، فأمسك الفأس، وبدأ يضرب الأسد، وكلما زأر الأسد، ضربه الحطاب بقوة غير مكترث بزئيره إلى أن قال الأسد:

ـ «كل ما كنت قد سمعته عن بني آدم، أقل مما عانيت منك، الآن علمت، أن ليس بوسع أحد أن يتحدّى قوة العقل التي يتحلى بها ابن آدم».

ـ أرأيت أيها القط: إذا كان الصوفيّة يتفاخرون بكرامات (مرشدهم)، فإن طلبة العلم، يفاخرون بالعقل والشّرع وبركة الآيات والأحاديث.

ـ لعلك لم تسمع أيها الفأر، مباحثات الجبرية مع بهلول العالِم؟

قال الفأر: أيها القط! من الأفضل أن توضِّح لي ما أجهل.

قال القط:

«يُحكى أن أحد الخلفاء العباسيين، سمح حين اعتلائه سدّة الحكم لأحد العلماء أن يؤم الناس في الصلاة يومياً، وكان هذا العالم (جبرياً)، أي أنه يؤمن أن الإنسان مسيَّر لا مخيّر ـ وكان البهلول من قوم الخليفة الأقربين، وكان عاقلاً عالماً، ولكنه كان على عداء مع (أهل الجبر)، لذلك كان يذهب إلى المسجد ويقول لإمام الصلاة قولاً قبيحاً، إلى أن أُخرج من المسجد بالقوة؛ مرة ذهب إلى المسجد سراً، واختبأ في مكان ما وهو يحمل قطعة من الآجر، ولما حان وقت الصلاة جاء العالم الجبريّ وصلى بالناس ثم بدأ بإلقاء موعظته، فقرأ عبارة مفادها أن العذاب لا يصيب الشيطان يوم القيامة، لأن جهنم نار، والشيطان من النار أيضاً، والجنس لا يتأذى من جنسه.

ثم قرأ عبارة أخرى معناها أن الخير والشر من عند الله؛ أراد البهلول أن يخرج، ولكنه صبر وضبط نفسه، إلى أن قرأ الرجل عبارة أخرى معناها أن الله تعالى يُرى يوم القيامة.

نفد صبر البهلول عندما سمع هذه العبارة، فخرج من مخبئه، ورمى الواعظَ بقطعة من الآجر التي كان يحمل، فشقَّ جبينه، وخرج من المسجد.

اشتكى قوم الواعظ البهلول إلى الخليفة، فغضب كثيراً من البهلول، وبينما كان الخليفة يفكر بنوع العقاب الذي سيُنزله بالبهلول، إذا بهذا الأخير يدخل حاسرَ الرأس حافيَ القدمين، ثم يتقدم ويجلس في صدر المجلس دون أن يلقي السلام.

ـ لما رأى الخليفة البهلول، ألحَّ في عتابه وقال: أيها المجنون، قليل الأدب، كيف يحقّ لك أن تترفّع على إمام العصر وتعتدي عليه؟

قال البهلول: يا خليفة الزمان، لا تتعب نفسك في أمر المباحثات والتفتيش عن أصل الأشياء، لقد عرض هذا الرجل ثلاث مسائل، وأنا حلَلْت له هذه المسائل الثلاث بقطعة من الطين.

فإذا سمح الخليفة وأصغى إليَّ سيعلم أن ما فعلته لم يكن أكثر من جواب عن مسائله..

قال الخليفة: أوضح لنعلم؟

● توجّه البهلول نحو الواعظ وقال: أيها الرجل! قلتَ إن الشيطان لا يتعذّب يوم القيامة بالنار، لأن الجنس لا يتأذى بما هو من جنسه.

قال الرجل: بلى!

قال البهلول: ما هو جنس الآجرة التي ضربتك بها؟

قال الواعظ: من التراب.

قال البهلول: إذاً، لماذا تأذيتَ عندما رميتك بها وشكوت أمرك إلى الخليفة؟ فسكت الواعظ.

ثم عاد البهلول وقال: يا إمام المسلمين! لقد قلت أيضاً إن الله يُرى يوم القيامة.

ـ قال: بلى!

قال البهلول: أرني الألَمَ؟

قال الواعظ: كيف يمكن أن يُرى الألم؟

قال البهلول: يا إمام الأمة! من لا يستطيع رؤية الألم كيف يمكن أن يرى الله؟

سكت الواعظ بعد هذا القول لا يحير جواباً.

عاد البهلول وقال: أيها الإمام! أنت نفسك قلت إن الخير والشرَّ من الله.

ـ قال: بلى!

قال البهلول: بما أن الأمر كذلك، فأنا قد رميتك بالطينة برضا الله، فلماذا تألمتَ وغضبت مني، مع أنني أعمل برضا الله؟

بعد هذه المحاورة خجل الواعظ وسكت، ومن شدة خجله لملم أذياله وخرج من المجلس لأن شروق الشمس يُصيب الخفّاش بالعمى.

ـ أيها الفأر: ألديك كلام الآن تريد أن تقوله؟

قال الفأر: أيها القط! لديَّ كلام كثير، ولكن الوقت ضيّق، فلنؤجّل الحديث إلى وقت آخر.

قال القط: أيها الفأر! لماذا تماطل في الحديث، إذا كان لديك كلمة قلها، وإلاّ فلتصدّق أقوال علماء الدين، ولتحترس من مزخرفات أدعياء التصوّف وشطحاتهم.

قال الفأر: أيها القط! إن حالنا معاً كحال السارق والتاجر.

قال القط: وكيف كان ذلك؟

قال الفأر:

«يُحكى أن تاجراً كان يسير في الصحراء وحيداً، بعد أن سبقته

القافلة، وصادف وجود قاطعَ طريق في تلك الصحراء، فاحتار التاجر حين رآه واضطرب وخاف خوفاً شديداً. هاجم اللصُّ التاجر، صارخاً في وجهه: «ماذا تحمل؟»، ومن شدة الرعب لم يُحر التاجر المسكين جواباً، فاستشاط اللص غضباً، وجرّد سيفه في وجه التاجر، وأوقعه عن جواده، وسلبه ملابسه ونقوده، ثم امتطى الجواد، وأمر التاجر المسكين أن يقبّل يديه ورجليه ويبارك له ما غَنِمهُ منه.

مواعظ القط والفأر

● وأنت الآن أيها القط بسبب العداوة الفطرية التي يضمرها القطرة للفئران، وبسبب انتقاد طلبة العلم للمتصوفة، تخاطبني بتعالٍ وكبرياء، وتشبّهني بزيد وبعمرو، ومنذ اللحظة التي استعطت فيها أن أخلّص نفسي من بين يديك، وأنجو من براثنك، اتخذت من قذف **«المرشدين الكاملين» و«المشايخ المستجابي الدعوة»** هدفاً لعبتك وسخريتك، وزرعتَ في قلبي رعباً يمنعني من الاقتراب منك طيلة عمري ويجعل سعيي من أجل رزقي صعباً ومتعذّراً، ومع ذلك تريدني أن أصدّق من غير حجة أو برهان أن طالب العلم محقٌّ والصوفي ضال؟

قال القط: أكانت كل هذه الأدلة والبراهين التي أوردتُها عبثاً؟ دون جدوى

صحيح القول: **«إن الوعظ لا يجدي إذا كان القلب أسودَ وصاحبه حقود، وأن المسمار لا يخرق الحجر الصّوان»**.

ـ أيها الفأر: لقد أدركت الآن مقدار كيدِك ومكرِك، وفهمت لماذا

قيل: «لو لم يكن الكلبُ مشركاً وبخيلاً، لما كان يلعق الماء بلسانه، وإن كان للفأر ميل إلى الصدق، فإنه يلبس جزمة موشّاة بالذهب، وأن لا عار على الشّهد المصفّى، إذا أضيف إليه مئة ضعف من الأفيون، وإذا بذر الملائكة بذور الحنظل في موسم الزّرع، واستخدموا أجنحتهم بدل المعاول وإذا هبّت عليها نسائم الأرواح، وسُقيت بماء الحياة، وكان السّاقي جبرائيل نفسه، فإنها لن تحمل في النتيجة جوهراً، وإنما حملُها هو تلك الثمرة المرة نفسها.

قال الفأر: أيها القط، من غير المعقول أن يصرِف الإنسان نهاره كلّه في الحديث والكلام؛ على الكائن الحي أن يسعى من أجل معاشه، وأن يفكّر بأمر مأكله ومشربه وملبسه، وخرج عياله وأطفاله، وتأثيث بيته وترتيبه، وتنسيق حديقته، وأن يفكّر بالحطب والسّراج، وتهيئة الأسباب اللازمة للحياة.

أيترك كل هذه الأمور الواجبة، ويتفرّغ للحديث والحوار، فيفتضح أمره، ويشمت به أعداؤه، ويتسوّل أبناؤه في الطرقات؟

ـ أيها القط: إن على كل حيٍّ أن يتأمل في مصيره والأيام القليلة التي يحياها، وأن تظهر عليه آثار نعمة الله التي أنعم بها على عباده، في مطعمه وملبسه ومشربه، أما إذا ظل يفكّر ليل نهار بما يجدر به عمله وقوله، فسيصبح في نظر أهل زمانه حقيراً ذليلاً، وحياة الرّاحة هذه لا يمكن الوصول إليها بغير السّعي والعمل، ولا بد من التجوال في حالتي الجوع والشبع لتأمين المعيشة، وسيجد لقمة تناسب الحال حيناً، وأحياناً لن يجد ما يسدّ به رمقه، وفي كل الأحوال يجب أن يجتهد ويعمل ذكاءه وفكره في السعي لتحصيل أسباب المعاش وشؤون الحياة.

ـ أيها القط: كل حي يرغب أن يتميّز عن أبناء جنسه من حيث

المسكن والمطعم، ويجهد لتأمين الجاه والمكانة السّامية، بما يُفرِحُ الصديق ويغمّ العدوّ، كما أنه يجب أن يسعى أيضاً لتأمين ذخيرة لأبنائه، فيتباهون بها بعد موته على أقرانهم.

ـ أيها القط: كم قيل من كلام عن العلم بلا عمل، وكم من أوراق سوّدت؟ ما هو النفع منها؟ أي خبّاز أو طبّاخ يقبل ثمن الخبز والحساء كلاماً وحديثاً؟ ربما كانت قلّة العلم والتفكير في هذه الحال أنفع!

قال الشيخ سعدي:

كل ما تزرعه من أجل مؤونتك، ولما يزل قصيلاً

يجب أن تقطف في موسم الحصاد سنابله

ولأنك صرت فقيراً، فارغ اليد، فلن تستطيع التفكير في أي معنى من معاني الحياة، ولا في أي أمر من أمورها.

من لا يستطيع أن يجعل لسانه حكماً، فليقطعْه، ويجلس في الزاوية أصمّ أبكم.

ـ فقد القط القدرة على الصّبر من هذه المزخرفات والأقوال المنمّقة وقال:

ـ أيها الفأر الغبي: إلى متى ستتحدث بمثل هذه الألفاظ الجوفاء، البعيدة عن العقل والمنطق والتأمل؟

إن أغنية الصداقة والنصيحة التي تغنّيها الآن، أنت تجهل مدى منفعتها! وما هي ثمرة هذه القصة المطوّلة الباطلة، التي ترويها في حبّ الدنيا وما جدواها؟

ـ والآن انصت واسمع ما سأقوله لك:

لقد قيل: «بعْ اذن الحمار واشترِ أذناً جديدة، لأن ما ستسمع لا تعيه اذن الحمار»، وأنا أيضاً أقول لك: إذا تركت عادتك الفطرية، وتحوّلت عن المكر والاحتيال فاسمع مني وسجّل على لوح الفؤاد والخاطر ما ستسمع، وإن لم تؤثر فيك النصائح كلها، التي قيلت في البدء، فلن يؤثر فيك شيء الآن، ومع ذلك انصت، لعل ما ستسمعه الآن من هذه المواعظ، يصوغ مستقبل أيامك.

ـ أيها الفأر: لقد تحدّثت عن الفراغ والرّاحة والرفاهية، وجمع المال وطرق إنفاقه على الملذات، وارتداء الملابس الفاخرة، وأكل أطايب الطعام، وشرب لذيذ الشراب، وتحدثت عن الاجتهاد في سبيل العيش والمسرّة، والسّعي من أجل المنصب والمقام، وادّخار الأموال للأبناء بلسان الأديب الأريب، فاسمع الآن الجواب:

ـ قيل إن رب العالمين قال: إنني لم أخلق الرفاهية والراحة، ومع ذلك فإن عبادي يجهدون في السعي من أجلها، وهذا يعني أن الراحة لن تتأتّى لمخلوق أبداً، وهذه حجة على أقوال الإنسان ودلالة على أوضاعه، لأن أهل الدنيا فرق ثلاث:

- فرقة تجمع المال ليل نهار، وأهل هذه الفرقة لا يفكرون بالموت وبحساب القبر، أو بالثواب والعقاب يوم الدين.
- وفرقة فكرها في الآخرة وفي السعي لمعرفة الله والتبحّر في الدين والتقوى، والتأسف والندامة على ما فات من أعمارهم، وهم غافلون عن التفكير بشؤون الحياة الدنيا، وجماعة خسروا الحالتين معاً، لأنهم تركوا العمل للدنيا، والعمل للآخرة، واشتغلوا باللعب واللهو والأكل والنوم.

وقد قال رسول الله(ﷺ): **«الدنيا جيفة وطالبها كلب».**

أي أن الإنسان إذا حصر همه بالدنيا، وحظّه وأمانيه وتفكيره في

جمع المال والمنال، فإنه يترك العلم والمعرفة والعبادة، ويشتغل في السعي لادخار المال، ومعلوم أن جمع المال لا يتيسر بغير المشقة والذل والهوان، لأنه من غير الممكن القيام بأي عمل كان، بدون السعي والمشقة، وكذلك الثروة والقوة والمنصب؛ وليس خطأ أن يقال: إن من يطلب الدنيا يخسر مفتاح الآخرة، ويقع في حبائل الشيطان، ويصبح أسير الغفلة، وفي سعيه لجمع المال سيلاقي الكثير من الغم والألم والحزن والنَّصب، وسيتخلف عن التفكير بأمور الآخرة، وينقضي عمره في الشقاء، ولن ينال سعادة الدّاريْن.

والظاهر أن لا سعادة في الدنيا لأهل الدنيا، وفي القرآن أدلّة على ما نقول، وكذلك في قول الرسول(ﷺ): «حب الدنيا رأسُ كلّ خطيئة» شاهد على هذا المقال في هذا المقام..

ويصادف أحياناً أن يجمع البخيل بصعوبة بالغة الكثير من الأموال، فلا ينفق منها ولا يأكل ولا يلبس، لأنه يجد اللذة في الجمع وحده دون الإنفاق، ثم حين يموتُ ويُدفن، يُعطي حكام الشّرع الحِصّة الكبرى من ثروته للوارث الذكر، والقليل المتبقّي تأخذه البنت للإنفاق على الزوج وننسى الأب وذكره، فيما ينفق الإبن ما يرث مع أصحاب السوء، من الأراذل والسّوقة على الطعام والشّراب.

وقد قيل: لا يعيش إنسانٌ براحة وسرور إلاّ إذا مات آخرُ محروماً. وهكذا يظهر أن السّعي من أجل المال غفلة تولّد الحسرة والندامة وجامع المال يعاني الأذى والنّصب والتعب، ومع ذلك فإنه من أجل الورثة ما يجمع، لا من أجل نفسه، لأنه في «الآخرة» سيحاسب حساباً عسيراً.

إنه يعيش عيشة الفقراء، ويُحاسب حساب الأغنياء، الذين جمعوا

أموالهم بالطرق غير المشروعة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شراً يَرَه﴾[٣٥].

- أيها الفأر: لو كان الإنسان يعلم متى يحلّ أجله لأنفق ما ادّخره بمقدار، وكم من مرة تعب الإنسان وشقي، وعاش جائعاً عارياً، يدخّر المال القليل ليبني بيتاً، ثم فجأة يأتي أجله، فيصنعون «تابوته» من الأخشاب التي كان قد جمعها لصنع الأبواب والنوافذ والشرفات، ويبنون قبره بالحجارة التي كانت معدة لبناء البيت، وفي أحيان كثيرة يبني الرجل بيتاً بشق النفس، ثم يموت قبل أن يسكنه، ليسكنه من سيزوّج أرملته.

قال سعدي:

«لا تتكيء على ملك الدنيا، لأن كثيرين من أمثالك زرعوا ولم يحصدوا».

وقال في مكان آخر:

ليست الدنيا دار أمان فهي ليست أكثر من لحظة

كم من مائس القدّ ورديِّ الخدّ، حضن ترابه لحدٌ ضيّق

ألا ترى إلى ذرّات التراب الأسود التي تخرجها النملة من القبرِ في كل لحظة؟

- أيها الفأر: إن الذين انصرفوا عن الحياة الدنيا، وتفرّغوا للعبادة، وللعمل من أجل الآخرة، عملاً بقوله تعالى: ﴿إن الآخرة هي دار قرار﴾[٣٦]، وعملاً بحديث الرسول: «ترك الدنيا رأس كل عبادة»

---

(٣٥) القرآن الكريم، سورة الزلزلة، الآيتان ٧ - ٨.
(٣٦) المصدر نفسه، سورة غافر، الآية ٣٩.

وارتاحوا من المال والهوى والشهرة،.ووجدوا الخلاص في الابتعاد عن الناس، واختاروا الكهوف والمغاور مكاناً لعزلتهم، هم كما قال سعدي:

«أولئك الذين يجلسون في زاوية النجاة

اقتلعوا أسنان الكلب، وكموا أفواه البشر!».

إن حال هؤلاء، لا تناسب حال أمة محمد(ﷺ) لأنه قال:

«أمتي ليست كباقي الأمم، يسكنون المغاور بلا زاد أو طعام»؛ المؤمن يعمل من أجل الآخرة والا ينسى نصيبه من الدنيا.

إن للإنسان الذي يعيش بين الناس بالإلفة والرأفة والتعاون، أجراً عظيماً، فالمؤمن الحقيقي هو من يعرف الشرّ ويتركه طوعاً واختياراً، وليس ذلك الشخص الذي يختار العزلة عن الخلق ويقفل على نفسه الأبواب، فلا يرى ولا يسمع؛ هذا الأخير محرومٌ من الكمالات، لأن رسول الله قال: خير الأمور أوسطُها، فمن هذا الحديث يفهم أن الإلحاف في طلب الدنيا والاشتغال بها نهاية الغفلة وكمال الجهل، كما أن ترك الدنيا والعزلة عن الخلق، بدليل «خير الأمور أوسطها»، غير جائز. لهذا يجب أن يكون السّعي من أجل المعاش وشؤون الدنيا معتدلاً بقدر الإمكان، وإن التعب من أجل تأمين أسباب المعيشة اليومية وتهيئة اللباس ـ الذي تقبل فيه الصلاة ـ لازمٌ واجب، وكذلك تأمين المنزل الذي يقي الإنسان الحر والقرّ، والتعامل مع الناس بالأدب والاحترام يعدُّ واجباً أيضاً.

من أين لمن لم يعرف لذة العيش، ولم يرَ الألوان، ويتذوق الجمالات أن يعرف سر الكون؟

من لم يذق طعم العسل، لا يعرف أن القادر عزّ وجلّ أوجد هذا

الشّهد من الغصن والزهر، ومن لم يتنزّه في الحدائق والبساتين، ولم يتذوق الفاكهة ويشمّ عبير الورود، لا يدرك آثار قدرة الله عزّ وجل. من لم يتجول في الأسواق والزوايا والحواري، ويشاهد الحقول والصحارى والسهول، وأنواع الزراعة، ويطّلع على آثار صنعة الصانع، هو جاهل، عديم الفائدة، مثله كمثل ذلك الشخص الذي ظنّ أن لفظة «فالوذج» تعني الحمّام.

ذُكر أن السلطان محمود[٣٧]، قال يوماً لوزيره «حسن ميمندي»[٣٨]: أتظن أن أحداً في هذه المملكة لم يتذوق «الفالوذج»[٣٩]؟

قال الوزير: أيها السلطان، كثيرون، لم يأكلوا الفالوذج ولا يعرفون ما هو؟

قال الملك: لا أيها الوزير، لا أعتقد أن شخصاً واحداً لا يعرف الفالوذج..

ظل السلطان والوزير يتجادلان، وكل منهما مصرٌّ على رأيه، وأخيراً اتفقا أن يعطي السلطان للوزير مبلغاً من المال إذا وجد في المملكة من لا يعرف الفالوذج، وإذا تعذّر إيجاد مثل هذا الشخص يتكفّل الوزير بأن يدفع للسلطان المال المقرّر في الإتفاق.

بعد ذلك، خرج الوزير للتفتيش، ووصل في تجواله إلى سوق الماشية، هنالك رأى رجلاً من البادية، فقال في نفسه إن هذا الرجل

---

(٣٧) **السلطان محمود:** هو السلطان محمود الغزنوي، أبو القاسم الملقّب بيمين الدولة (جل: ٣٨٧هـ.ق ـ وفاته ٤٢١هـ.ق)، هو ثالث السلاطين الغزنويين، وأكثرهم قدرة، عاش ٥١ سنة وحكم ٣٣ سنة، (أنظر لفت نامة م).

(٣٨) **حسن ميمندي:** الملقب بشمس الكفاة توفي سنة ٤٢٤هـ.ق كان رجلاً فاضلاً شريفاً، وهو الذي أمر أن تكتب سجلات الوزارة في عهده بالعربية.

(٣٩) **الفالوذج:** أو بالوده، نوع من الحلوى يصنع من السكر والنشاء والجوز المطحون.

وجماعته يعيشون في المناطق البعيدة من الحضارة والعمران، وحتماً هو لا يعرف ما هو «الفالوذج»؟ لذلك أحضر البدويَّ إلى بلاط السلطان، الذي أمر بإحضار بعض «الفالوذج» وسأل البدوي:

ـ أأكلتَ من هذا الطعام في حياتك؟

قال البدوي: لا، أيها الملك، لم أذقه في حياتي كلها، ولا أعرف ما هو!

قال الملك: ألا تعرف ماذا يُسمى؟

قال البدوي: لست متيقناً من اسمه، ولكنني أذكر أن هنالك في موطننا حيث نعيش، رجلاً هو أكثرنا تعقلاً وفهماً، وهو يأتي مرة كل عام إلى المدينة، وقد سمعته مرة يقول بعد عودته من المدينة، أن في المدينة حمامات جميلة، ولذلك فأنا أعتقد أن هذا الطعام هو «الحمّام».

ـ عندما سمع السلطان هذا الكلام ضحك كثيراً، وأمر أن يُعطى الوزير المبلغ المتفق عليه في الرهان.

قال الوزير: أيها السلطان! فلتأمر خازنك أن يعطيني الضّعفين، لأنني أحضرت إليك من لم يرَ الفالوذج، ولا يعرف ما هو الحمّام.

فأمر الملك أن يعطى الضّعفين.

وهكذا يا عزيزي الفأر، من لم يرَ ولم يسمع ولم يأكل، ولم يتذوق الأطعمة، كيف يعرف ما هي اللذة؟

ـ إن رب العباد خلق هذه النعم من أجل عباده، ومن أجلهم جعلها حلالاً طيباً طاهراً، وقال: ﴿كلوا من طيّبات ما رزقناكم﴾[٤٠].

---

(٤٠) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٥٧.

إذاً إن التمتّع بالنعم الإلهية، سبب فهم القدرة الكاملة وإدراكها، وإن الإنزواء والابتعاد عن الناس لا نفع منه ولا فائدة، والطريق الأوسط في السلوك هو المستحسن المستساغ.

ـ والآن: ماذا تقول أيها الفأر بعد كل ما سمعت؟

قال الفأر: الوقت ضيّقٌ الآن، وقد حان وقت الصلاة، فلنذهب الآن أنا وأنت، لنصلي، نستطيع أن نتابع الحديث في وقت آخر إذا أمدَّ الله في عمرنا.

قال القط: أيها الفأر! إن للصلاة شروطاً كثيرة، من أهمها: الوحدة والإخلاص، والبعد عن العناد والحسد، والتوجه بقلب طاهر ونيّة سليمة إلى الحضرة القدسية، وليس كمثل ذلك التركي الذي بكى بين يدي الواعظ.

قال الفأر: كيف كان ذلك؟

قال القط:

ذُكر أن تركياً مرّ قرب مسجد في أحد أحياء المدينة، فسمع واعظاً يلقي موعظته، فدخل التركي المسجد، وجلس بين الناس، والواعظ يلقي موعظة يعجز عن فهمها طلاب العلم، فكيف بالتركي؟ ومع ذلك أخذ التركي يبكي بصوت مسموع، فانتبه الناس عند ذلك إلى حالته واستفسروا منه عن سبب بكائه.

ـ قال: أيها الأخوة، أملك في قريتي قطيع ماعز، وفي هذا القطيع كبشٌ أحبّه حباً جماً، ولي في هذه المدينة مدة، لم أرَ ذلك التّيس، وعندما رأيت الواعظ الآن، ذكّرتني لحيته وهي تهتزّ بلحية الكبش الذي أفتقده كثيراً، ولهذا لسبب غلب عليَّ البكاء.

ـ أيها الفأر: يبدو أنك تذهب إلى الصلاة ليحترمك قومك وأقاربك ويجلّوك، أو من أجل غش صاحب البيت وخداعه.

ـ أيها الفأر: لا قيمة لعمل يقوم به الإنسان وهو غير عالم بحقيقته.

وبما أنك اعتذرت الآن وتريد الذهاب، نذهب نحن أيضاً، ثم نعود في وقت آخر.

ـ بعد هذا القول: انصرف الفأر عائداً إلى بيته، وكذلك القط رجع إلى منزله مهموماً حزيناً، وكان صاحب البيت قد رمى بقايا طعام في إحدى الزوايا، فالتهمها القط لشدّة جوعه، ثم عاد وجلس قرب باب الفأر...

ـ رأى الفأر أن القط قد عاد وجلس متربصاً أمام باب الحجر، فعاوده الخوف والاضطراب، ولشدة رعبه ألقى على القط السلام:

قال القط: وعليك السلام أيها الفأر المبجّل: جئت اليوم لأكون ضيفك فلا تختلق الأعذار.

قال الفأر: أيها الملك، البيت حقير وقذر، لأن حَرَمنا مريضة متألمة. والآن أيها الملك كن منصفاً، وتخيّل الاحراج الذي سيصيبني إن رأيتم الفوضى المستشرية في المنزل، لذلك أرجو أن تغفروا لي التقصير لطفاً منكم وعطفاً، إلى أن يطمئن بالي على أهل الدار، فأتدارك الموقف بصورة معقولة، حينذلك أُعلم جلالتكم أن الوليمة جاهزة.

قال القط: لو أن مئة شخص مرضى، ولو أن مئة فتنة وقعت، واضطرب العالم بأسره، لن أغادر هذا المكان، ولن أبتعد قيد أنملة، أردت أن تقوم بواجب ضيافتي أم لم تُرد، بقيتَ أو ذهبتَ، أنا قطعت على نفسي عهداً وسأفي به، والحديث الشريف يقول:

«أكرم الضّيف ولو كان كافراً» وفي هذا الباب أدلّة كثيرة:

● حكي أن أحد معاصري الرسول(ﷺ) كان مضيافاً، وكانت زوجته لئيمة بخيلة، وكان ذلك الرجل يشعر بالمرارة، لشدة ما تظهر تلك المرأة من كره للضيوف، فشكا أمره إلى رسول الله(ﷺ)، فأمره النبي(ﷺ) أن يطلب إلى المرأة، أن تنظر خلف الباب عندما يأتي الضيف، وأن تنظر وراءه عندما يخرج، لتعرف مقدار الخير والبركة التي وضعها الله تعالى في حق الضّيافة...

عندما عاد الزوج وأخبر زوجته بما قاله الرسول(ﷺ)، رضيَت مكرهةً أن يدعو رسول الله واثنين من صحابته إلى منزله، وعندما دخل الضّيوف رأت في ركابهم خيراً كثيراً يدخل البيت، وقبيل خروجهم رأت الهوام والحيّات والعقارب تخرج قبلهم من المنزل!

وعندما أخبرت زوجها بالأمر، حكى هذا الأخير للرسول(ﷺ)، فقال له(ﷺ): إن النّعم هبة ربّ العالمين ببركة الضيافة، وأما الحشرات فإنها خطايا المُضيف قد خرجت من المنزل.

بعد ذلك، رغبت المرأة بالضيافة، وبذلت كل ما في وسعها جَهداً ومالاً في إقامة الولائم.

كما يُحكى أن إبراهيم عليه السلام، كان لا يتذوق الطعام وحده، وكان يستضيف الناس دائماً؛ وصادف أن شعر إبراهيم(ع) بالجوع يوماً وكان في المنزل وحده، فخرج يفتش عن ضيف يشاركه طعامه، فرأى جماعة يسيرون في الصحراء ـ خمسة عشر رجلاً من الكفار ـ يحملون الفؤوس والمعاول، فدعاهم إلى مائدته، فقالوا له: نحن عمال مساكين، ولكلٍّ منا زوجة وأطفال ينتظرون عودتنا، فإذا

أضعنا وقتنا، وأكلنا على مائدتك، فإن أهلنا وعيالنا سيظلّون بلا زاد.

فقال لهم إبراهيم: إنه سيعطيهم أيضاً أجرة عملهم، وفي كل حال أرضاهم، وأخذهم إلى بيته وأولَمَ لهم، وكان هذا الأمر سبب إيمان هؤلاء الناس بدين إبراهيم(ع).

ويُحكى أيضاً أن (الرسول)(ﷺ) أكرم ضيفاً كافراً، وحثّ أصحابه على إكرام الضَّيف أياً كان...

ـ وإذاً أيها الفأر: إن في الضيافة بركة وشرفاً كبيراً، وأريد أن يكون لك حظ منها. علماً أنني في حالة اعتكاف لمدة عشرة أيام، ولست محتاجاً إلى ضيافتك، ولكنني أعلم أن كل ما قلته مكر واحتيال، وليس في بيتك مريض، وأنك لا تقول الصدق. إذا كنت محتاراً، فاستشِر، لأن في المشورة نفعاً عميماً، وقد أمر الرسول(ﷺ) المؤمن بأن يشاور في أموره فيريح نفسه من الحَيْرةِ والاضطراب.

قال الفأر في نفسه: ها قد جاءني عذرٌ جيد، سأقول إني ذاهب إلى البيت لأشاور أهلي ثم أعود.

ثم إن الفأر توجّه إلى بيته، وبعد ساعة خرج وقال:

ـ أيها الملك ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أواجهك حياءً وخجلاً.

قال القط: لماذا؟

قال الفأر: لأنني استشرت وكانت النتيجة سلبية، وأخاف أن تظنّ بي الظنون، ويتبادر إلى ذهنك أنني قد كذبت.

قال القط: أيها الفأر! ممن أخذت المشورة؟ بالتسبيح، أم بالقرآن، أم بالقرعة، أم من الكتب أو العلماء أو النساء؟

لما رأى الفأر أن القطّ يدقّق في هذا الباب ليتّهمه بالكذب، قال في نفسه:

ـ إذا قلت بالتسبيح سيقول لي: استخر في حضوري، وإذا قلت بالقرآن سيقول: ماذا تعرف من القرآن؟ وإن سميت كتاباً آخر سيقول: أن لا قيمة للاستخارة ولا اعتبار لها إذا كانت بغير القرآن، وإذا قلت استشرت العلماء، سيقول: من أين لك بالعلماء في بيتك؟ فالأولى أن أقول: إنني استشرت زوجتي، وأنها لم تقبل. وسأقول له إنه قد ورد في الحديث[41]، أنه كلما أراد رجلٌ أن يطلب المشورة، ولم يجد رجالاً علماء، يجب أن يستشير النساء..

قال القط: أيها السّافل الكذّاب! هذه الرواية ليست صحيحة، ولا صادقة.

قال الفأر: من أي وجه؟

قال القط: لأن النساء لا يصلن إلى كنه الأمور، وكل شخص يخالف النساء في الرأي فإنه موفق في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: «إذا شاورت النساء فافعل عكس ما يُشرن به عليك»[42].

حُكي أن يزيد بن معاوية، لما قرّر محاربة الإمام الحسين(ع)، استدعى جميع الفرسان، الحاذقين، السيّافين، ووعدهم بالمناصب المختلفة، ومن جملة الذين دعاهم المختار بن أبي عبيدة الثقفي، الذي كان شجاعاً، ومن أصحاب السّيف، وكان له أنصار محبّون.

---

(٤١) نقد لواضعي الحديث، الذين يقحمون الحديث في كل شاردة وواردة. وللشيخ البهائي كتاب اسمه دراية الحديث، حدّد فيه شروط قبول الأحاديث المروية.

(٤٢) المصدر نفسه.

وعندما خرج جند يزيد يجوبون البلاد لجمع القواد والمحاربين، كان المختار على سطح بيته، رأته امرأته، فنصحته أن يبتعد عن الحافّة كي لا يقع، وبما أنه تذكر الحديث الذي يقول: شاوروا النساء وخالفوهن، فإنه اقترب من الحافة فزلّت قدمه، ووقع عن السطح وكُسِرت رجله. بعد هذه الواقعة بثلاثة أيام، قَدِم رسول يزيد إلى الكوفة، وذهب إلى بيت المختار، وأعطاه أمر يزيد، وأنه يجب أن يذهب مع أهل الكوفة لمحاربة الحسين(ع).

قال المختار: أيها الأعزاء، أنتم ترَوْن أن قدمي مكسورة، ولولا ذلك لأطعتكم.

ولما رأى جندُ يزيد أن المختار مكسور الساق، ذهبوا وذكروا الأمر ليزيد، فقال: ليس على المختار من حرج في هذا الأمر.

ولم يكن ذلك إلاّ ببركة قول الرسول(ﷺ)، لأنه لو لم يكن مكسور الساق، لاضطر أن يأتمر بأمر يزيد، ويذهب لمحاربة الحسين(ع).

ـ وإذاً أيها الفأر! بما أنك استشرت النساء في أمري، ولم يقبلن، عليك أن تعمل عكس ما يقلن، وتطبّق حديث الرسول الكريم، وتستضيفني.

قال الفأر: يا ملك الزمان! الصحيح أنني لا أريدك أن تتناول طعاماً حراماً أو فيه شُبهة، لأن هذا النوع من الضيافة قائم على الإكراه والغضب، ولا إخلاص فيه، وإذا تركتنا الآن إلى وقت آخر، إلى أن نصحّح الموقف، ونحضّر ما يلزم للضيافة، يكون أفضل وأقرب إلى الصواب.

قال القط: أيها الفأر! سأورد لك حكاية أخرى في باب أقوال النساء وأفعالهن.

قال الفأر: تفضَّل إحكِ لأسمع!

قال القط:

ذُكِر أنه لما عصى الشيطان اللعين الله عزّ وجلَّ، وانحرف عن جادة الصواب، أخذ يفكر بالحيل التي سيعتمدها لخداع بني آدم.. بعد تفكير طويل، تذكر أسباب اللهو والهوى، ففرح كثيراً وقال في نفسه: أستطيع أن أخدع أكثر الناس من هذا الطريق، فكّر مرة أخرى، فخطرتْ له المسكرات كالشراب وغيره، فزاد فَرَحه؛ ثم إنه تذكر النساء وخصالهن ومكرهن وكيدهن، وتشجّع كثيراً من هذه الفكرة، حين ظهرت أمامه جليةً نظراتُ النساء الناعسة، ودلالهن وغنجهن، ومن شدة فرحه، نهض فجأة، وأخذ يدور حول نفسه، ويقول: لقد اكتلمت العدة الآن.

ـ وإذاً أيها الفأر: أنت قلت إن الصوفية أهل الحقيقة، وأهل الحقيقة شبّهوا الدنيا بالمرأة، لأنها كل ساعة في شكل، ينخدع الناس، فيخرجون من هذه الدنيا الفانية بلا توبة أو إنابة.

ـ أيها الفأر: إن من يعدّ نفسه من أهل الحقيقة، يجب أن يبتعد عن دنس الدنيا، ومنازع النفس الأمارة، والهوى، لأن أنفاس الدنيا الشيطانية، وتجلياتها المتنوعة، ودلالها، يخدع الناس كل ساعة بأسلوب، وكل لحظة بشكل، وهي تنقلهم من حال إلى حال دون وعي منهم أو علم.

ـ أيها الفأر: إن من يعدّ نفسه من أهل التحقيق يجب أن يبتعد عن

الدنيا الخدّاعة، ويسلك مسلك الزهّاد، لتشعّ في ظلمات نفسه أنوار الحقيقة.

ـ أيها الفأر: أريد أن أسألك سؤالاً أجبني عنه بصدق.

قال الفأر: أيها السيد، أنت طالب علم، وأنا درويش، معتكف، لم أتعلم كثيراً، كيف يمكنني أن أجيبك؟

قال القط: أيها الفأر، بين العلماء جماعة، ما إن يقرأوا حديثاً، أو آية، يلجأون في أي مكان التقوا فيه بالناس: في السوق والمدرسة والمسجد، إلى البحث والجدال العقيمين.

إن هذا الأسلوب غير مقبول لدى العلماء الحقيقيين، لأن هؤلاء إذا التقوا بأمثالهم وبخاصة طلاب العلم، يسأل أحدهم الآخر، أي كتاب قرأت؟ أو أي باب درست؟ ليمتحنوا قابليته وعلمه.

إن أنا سألتك عن أمر لا تعرفه لك أن تتعجّب، ولكنني سأسألك عن التصوف، لأنك قد ذكرتَ أن لك فيه باعاً طويلاً، وسأحصر سؤالي في بحث «القيل والقال» في التصوّف، فإذا كنت تملك برهاناً ساطعاً، أصدّقك، وإلاّ فإنني سأفحمك كي لا تتجرأ بعد الآن وتتطاول علينا، وتقول كلاماً لا طائل منه، وتردّ على علماء الدين المبين، وتعرض الصدّق مكان الدرّ في سوق الصرافين الماهرين، شرط أن لا تلجأ إلى المكر والحيلة، وتسير على جادة الإنصاف، وأن تفهم كلامي بالعقل والإدراك، والتدبير والتفكير، وحين تراه صادقاً صحيحاً، صدّقني بإخلاص وحسن نية، واترك العناد، واللجاج، ليتّضح لك الحق من الباطل، والباطل من الحق، لعل نور الشّريعة ينير باطنك في النهاية، فلا يصيبك ما أصاب القاضي الغزنوي:



القاضي الخائن والجارية الفاضلة

● يُحكى أن تاجراً كان يعيش في عصر السلطان محمود [الغزنوي]، وكان لذلك التاجر جارية جميلة عاقلة عالمة، كانت له نعمَ الجليس الأنيس.

ولما عزم التاجر على السفر مضطراً، فكر في أمر الجارية، إن حملها معه سيجد صعوبة في صونها عن أنظار الغرباء كرفاق السفر وغيرهم، وليس له في هذه المملكة أهل أو أقارب... وبعد كثير من التفكير، وجد أن الحل الوحيد المعقول، أن يعهد بالجارية إلى قاضي الشرع، لأنه لا سلطة لأحد عليه، وهو يتولى أمور الشرع والدين، وجميع الفقهاء، يتبعون أوامره الشرعية ونواهيه، لذلك سيكون هذا التدبير حكيماً.

قصد بيت القاضي، وهو يحمل معه هدية تليق بالمقام، وشرح للقاضي قصته، وسلّمه كذلك مبلغاً من الذهب، ينفق منه على الجارية، ثم تركها في عهدته وسافر.

ـ بعد مدة طلب القاضي الجارية إلى مجلسه وقال لها: لقد وهبني

التاجرَ إياك قبل سفره، ولذلك فإن واجبَك إدخال السرور إلى قلبي، وسأجعلك سيدة النساء في قصري، والمفضّلة لدي.

قالت الجارية: عجيب أمرك أيها القاضي، كيف يسمح العقلاء لأنفسهم أن يفعلوا ما هو نقيصة لهم، وما يجلب لهم الخزي في الدنيا والآخرة؟

قال القاضي: ما الذي سيكون سبب الخزي في الدنيا والآخرة؟

قالت الجارية: أولاً، هو قولك إن التاجر قد وهبني إليك، فإن كان هذا صحيحاً، فلمَ أوصاك بي، وبحضوري، ولماذا أعطاك نفقة معيشتي وكسوتي؟

هذه المسألة بيّنة واضحة لك ولي، والحق يشهد أنك لا تقول الصدق، وقد قال رب العالمين: ﴿إن الله لا يحب الكاذبين﴾، وسبب كذبك أن نيّتك غير صافية، وقصدك الخيانة وقد قال رب العالمين بشأن الخائن: ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾، والظاهر البيّن أنك لا تدرك هذه الصفات الذميمة، ولا تلاحظها:

- أيها القاضي: إن خالق الخلق حاضر وناظر وشاهد، ومطّلع على أسرار الخلائق، وهو يعلم أنك تضمر الشر والخيانة، مع من تعدّها ضعيفة، ناقصة العقل والدين والعلم، عاجزة عن التدبير، أسيرة لديك، بلا ناصر ولا معين.

- أيها القاضي: ما هو الفرق بين العالِم والجاهل؟ وما ميزة العالم على الجاهل؟ أيعقل أن يكون العلماء كذّابين خونة؟

قال القاضي: أيتها الجارية، لقد أحببتك فكوني عطوفة، وإلاّ فالعقاب سهل هيّن.

قالت الجارية: أنا مسكينة، عاجزة، وحيدة، منذ أُسرتُ وأُبعدت عن أمي وأبي وأهلي، ونُقِلت من وطني إلى بلد غيره، وقُتل كثيرون من مواطنيّ في تلك المعركة التي أسرت بعدها، وقد يسّر الله ربّ العالمين أمري، عندما وقعت في يدِ ذلك التاجر، الذي أحبّني وأكرمني وعوّضني حبَّ الأهل والوطن.

ـ أيها القاضي: لن يكون تأديبك لي وتعذيبك أقل سوءاً مما جرى لي، وأنا لا أخاف الجوع والعطش والعري، وإن القتل أهون عندي من أن يواجه الإنسان ربّه خجلاً نادماً، لك الخيار أيها القاضي: فإن كنت تعتقد أنك تستطيع أن تطوّعني، لأسلّمك نفسي راضية فأنت مخطىء، فافعل ما يحلو لك لتأديبي ولا تتهاون.

اضطرب القاضي من هذا المقال، وضرب الجارية بشدّة وقيّدها وسجنها. بعد مضي عدة أيام جاء القاضي إلى حيث كانت الجارية مقيّدة مسجونة، وقال لها:

من الظلم أن تكون من هي في منزلتك جمالاً وكمالاً، مقيّدة، جائعة، عارية، لِمَ لا تتعلّقين بعنقي، فتنقضي أيامك في الأنس والبهجة، ويكون جواري القصر وغلمانه وعبيده جميعاً في خدمتك، ثم إنني لست أقلّ من التاجر، فتخلّي عن المكابرة والغرور والجهل، لنقضي ما تبقى لنا من العمر باللهو والمسرّة.

قالت الجارية: أيها القاضي! حرام أن أعيش معك وقد عاهدت غيرك.

غضب القاضي، وضرب الجارية المسكينة بشدة، وأعادها إلى السجن.

وكان في تلك المحلّة حيث بيت القاضي، امرأة مشهورة بالفساد، قتلها بعض أهل الحي ليلاً، وقد أُخِذَت إفادات عدد من الناس، ولما وصلَ محضر القضيّة إلى القاضي، وقّع عليه واحتفظ به عنده، وأضمر في نفسه، أنه سيلصق تهمة القتل بالتاجر حين يعود كي لا يستعيد الجارية..

واستمر القاضي في تعذيب الجارية وهي ترفض الإنصياع له، ووصل به الأمر أن استخدم في تعذيبها الملاقط المحمّاة، إلى أن تجرّح بدنها كله.

بعد سنتين عاد التاجر من السفر، وتوجّه مباشرة إلى بيت القاضي، لشدة شوقه إلى الجارية، وأوصى خادمه أن يقول للتاجر إنه نائم. رجع التاجر المسكين إلى بيته حزيناً، وظلّ تلك الليلة ساهراً مفكراً حتى الصباح. كما أن القاضي أوصى غلمانه أن يقولوا للتاجر عندما يأتي في الغد إن القاضي مشغول بضيافة أهله ومحارمه ثلاثة أيام، وأنه لن يخرج، ولن يقابل أحداً.

أما التاجر المسكين فإنه قرّر أن يقدم إلى القاضي هدية لائقة لأنه استضاف الجارية في بيته مدة طويلة، لذلك هيّأ رزمة من أغلى أصناف الأقمشة وأخذها إلى بيت القاضي، ولكن أحد غلمان القاضي قال له:

ـ أيها التاجر إن لدى القاضي ضيوفاً من محارمه، ولن يقابل أحداً لعدة أيام، يمكنك الإنصراف الآن، ونحن نطلبك عندما يتمكن القاضي من استقبالك.

ظ،ل القاضي يماطل شهراً كاملاً، إلى أن دخل عليه التاجر يوماً

وهو في ديوان القضاء، فألقى عليه السلام، ولكن القاضي لم يجب.

جلس التاجر المسكين في زاوية، إلى أن انتهى القاضي من أحكامه، ونهض ليذهب إلى منزله، فاستوقفه التاجر وقال له: أيها القاضي! لديَّ مظلمة!

قال القاضي: ما هي؟

قال التاجر: أنا الذي استودعتك جاريتي، قبل سفري، وها قد عدتُ، ولكنني لم أستطع الوصول إليك، وكل مرة أرَدّ عن بابك، واليوم أنت لا تردّ على تحيتي، أريد أن أعرف السبب.

قال القاضي: السلام عليك، ورحمة الله وبركاته، أنا لم أعرفك في المرة الأولى، لذلك فأنا معذور! والآن أهلاً وسهلاً بك ومرحباً! أخبرني لماذا طالت غيبتك؟

قال التاجر: هذه حال الأسفار، يظن المرء أنه سيغيب شهراً، فيطول سفره سنتين.

قال القاضي: إلى أين سافرت؟

قال التاجر: توجهت أولاً إلى بلاد الهند، فاشتريت بضاعة، ثم سافرتُ إلى بلاد الروم [تركيا]، وعدت إلى الوطن من طريق تبريز.

قال القاضي: إن الأقمشة التي أرسلتها إلينا منذ بضعة أيام من الهند أليس كذلك؟ لمَ لم تحضر لي شيئاً من بلاد الروم أو من تبريز؟

قال التاجر خجلاً: إنني لم أحضر من بلاد الروم أو من تبريز ما يليق بمقامكم.

قال القاضي: أيها التاجر، إن ما عانيناه بسبب جاريتك يفوق

الوصف، ولقد تحملنا كل ذلك العناء من أجلك، لقد ظلت جاريتك مريضة سنة كاملة، لقد أصيبت أولاً بداء الجنب، ثم بذات الرئة والاستسقاء والإسهال ونوبات الحمّى والصّرع، واليرقان، والقولنج، والصداع والبواسير... ولقد أحضرنا لها الأطباء الحاذقين، ودفعنا مبالغ طائلة أجرة الأطباء وأثمان الأدوية والمعاجين والأشربة، ولا وقت الآن لذكر المتاعب الأخرى، نرجىء ذلك إلى صباح الغد انشاء الله تعالى.

قال ذلك، ودخل بيته تاركاً التاجر في حَيْرة من أمره، يقول في نفسه: والله إنها لحكاية غريبة عجيبة، ولكن القاضي رجل منصف، سبحان الله...

لما أصبح الصباح، هيّأ التاجر مبلغاً كبيراً من المال، وحمل ذهباً وأقمشة، وتوجّه إلى منزل القاضي ليستردّ الجارية، ولكن الغلمان أخبروه أن القاضي مشغول بضيوفه، وطلبوا إليه أن يعود في المساء.

زادت حَيْرة التاجر وزاد اضطرابه، ولما أقبل المساء، وجاء بيت القاضي، أدخله الغلمان دار الضيافة كما أمرهم سيّدهم.

بعد ساعة جاء القاضي، فأظهر له التاجر التعظيم والاحترام.

وقال له القاضي: بما أنك كنت قد عُدت حديثاً من السّفر يوم رأيتك أول مرة، وجدت من غير الملائم أن أخبرك بخبر الجارية، واضطررت أن أؤجّل الحديث أياماً. إن أصل البلاء، أن الجارية ذهبت مرة إلى الحمام ولم تعد، وبعد مدة قتل شبان الحي امرأة ساقطة من باب التعصّب والغَيْرة، ولما انتشر الخبر علمنا أن تلك المرأة هي الجارية نفسها.

حين سمع التاجر هذا الكلام، اغتمّ كثيراً وخرج من منزل القاضي

كالمجنون، وهو يفكّر بكلام القاضي، ولا يعلم إن كان صادقاً أم كاذباً.

بعد أن فكّر كثيراً دون أن يصل إلى نتيجة، قرّر أن يكتب عريضة ويرسلها إلى السلطان محمود.

عندما قرأ السلطان رسالة التاجر، أمر بإحضار القاضي إلى مجلسه وسأله:

ـ أيها القاضي: لِمَ لمْ تسلم التاجر الجارية التي استودعَك إياها حين سافر؟ ألا تتقاضى أنت كل سنة مبالغ طائلة من أموال التجار وأمانات الناس بحسب الشرع؟ أليس لك دين وناموس؟

ـ أيها القاضي: يجب أن نخلّص الناس من شرّك، ونولّي القضاء لرجلٍ أكثر أمانة منك.

قال القاضي: أيها الملك أبقاك الله ودولتك ذخراً للناس! الحقيقة أن التاجر أودعني جارية وسافر، ولكن الجارية ذهبت بعد مدة قصيرة من سفر التاجر إلى الحمام ولم تعُد ثانية؛ ثم عرض على مسمع الشاه، ما كان قد قاله للتاجر، وقدّم إليه المحضر الذي كان رؤساء المحلّة قد وقّعوه بخصوص المرأة الساقطة.

عند ذلك قال السلطان للتاجر: بما أن جاريتك كانت قد أصبحت امرأة فاسدة، وقتلت بسبب ذلك، فلا ذنب للقاضي.

ولم ينبس التاجر ببنت شفة، وعاد إلى منزله حائراً مهموماً محزوناً. أما القاضي فقد عاد إلى منزله مسروراً، وطلب الجارية، وأخذ يلاطفها ويحاول إرضاءها، ولكنها رفضت الإنصياع له، فأعادها إلى السجن من جديد.

وكان من عادة السلطان محمود، أن يتنكّر ويخرج ليلاً، يتجول في الحواري ويستمع إلى أقوال الناس، ليطّلع على أحوالهم وأوضاعهم، وعلاقاتهم، ولينعم على الفقراء والدراويش[٤٢].

في إحدى الليالي خرج السلطان كعادته، ووصل إلى أحد الأحياء فرأى دكاناً مفتوحاً، وسمع أصواتاً كثيرة وغناء.

اقترب السلطان أكثر، وأصاخ السّمع وإذا بمجموعة من الشبّان يلعبون لعبة الملك والوزير؛ أخذ أحدهم قبضة حصى، ورماها فأصابت إحداها واحداً منهم؛ وذلك يعني أنه هو الذي سيقوم بدور الملك، عندما رأى الرفاق أن هذا الرجل هو الملك، ضحكوا كثيراً لأنه كان سفيهاً جاهلاً، وليس لديه القدرة على ضبط اللعبة [لعبة الحكم]، فكيف يمكنه أن يحكم في الأمور الشرعية؟

وكان بين الجماعة فتى يضع على رأسه قبّعة من اللّباد، أخذ يسخر من (الملك الممثل)، والآخرون يضحكون.

قال الرجل (الملك)، لمَ تضحك أيها الصبي، ألم يعجبك أنني صرت ملكاً؟

قال الفتى: بما أنك صرت ملكاً، فإنك ستفعل ما فعله السلطان محمود في مسألة القاضي والتاجر والجارية.

لما سمع السلطان هذا الكلام، حدّد مكان الدكان، وتأمل الفتى، وعاد إلى منزله، وظل تلك الليلة يفكر بما رأى وبما سمع، ويقول في نفسه: إن كلام الفتى ليس عبثاً!

(٤٢) كان الشاه عباس الصفوي يفعل ذلك أيضاً، وربما كان ذلك بتأثير الشيخ البهائي فيه (راجع كتاب المؤلفة: بهاء الدين العاملي أديباً وفقيهاً وعالماً، ص ٦٨ وما بعدها.

في اليوم التالي، ما إن جلس السلطان على عرشه حتى أرسل غلمانه إلى ذلك الدكان، وطلب إليهم إحضار الفتى ذي القبعة اللّباد، الذي كان يلعب مع الآخرين لعبة الملك والوزير..

وبعد بحث وتفتيش وعناء، وجدوا الصبي، وكان غسّالاً، ظريفاً، أقرع، جريئاً، جسوراً، حادّ اللسان، وكان لهذا الفتى أب عجوز، لما رأى رجال الملك يسألون عن ابنه، ارتاع واضطرب وقال له: لقد خرّبت بيتنا أيها الفتى المشؤوم، ليتني لم أنجبك، وقد قيل: «الابن إذا أعانك فهو ذخر لك، وإذا كان عاقاً، فلتحمله الريحُ وتريحك من همّه».

وخوفاً من أن يُحمَّل وزر ما فعله ابنه، توارى عن الأنظار.. اصطحب الخدم الفتى إلى بلاط السلطان، وخرج أهل الحي جميعاً كباراً وصغاراً، أكابر وسوقة وراءهما للفرجة ولمعرفة ذنب الفتى: واحد يقول إنه عدو للسلطان، وآخر يقول إنه خائن، وهكذا انتشرت بين الناس أقاويل وتخرّصات كثيرة من هذا القبيل.

ولما رأى الأب أنهم حملوا ابنه إلى السلطان، وقف قلبه في صدره وقد قيل:

«الولدُ وإن كان كومة ترابٍ فهو نور عيني الوالدين».

ولما وصل الحشد إلى البلاط، نظر الملك إلى الفتى وسأله، إن كان هو الذي رآه في الليلة السابقة، يلعب مع الآخرين لعبة الملك والوزير.

قال الفتى: نعم.

قال الملك: ما هي حكاية القاضي والتاجر؟ ولمَ قلت لذلك الرجل

إنك ستحكم كحكم السلطان محمود في قضيّة القاضي والتاجر والجارية؟

قال الفتى بعد تفكير طويل: أيها السلطان جُعلت فداك! إذا ما أتيح لي أن أحكم مرة، فسيظهر للسلطان، وللجميع كيف سأدين القاضي، وأسترد الجارية منه.

أعجب السلطان بكلام الفتى، وتعجّب من مسلكه وجرأته وقال له:

ـ إذا تسلّمت الحكم، كم تحتاج من الوقت لتقضي في هذه المسألة؟

قال الفتى: جعلتُ فداك؛ أحتاج إلى ستة أيام لأستردّ الجارية من القاضي.

قال الملك: سنتنازل لك عن الحكم لمدة ستة أيام، تصبح فيها الآمر الناهي، لنرى ما سيكون من أمرك.

إذا استعدت الجارية من القاضي سنكافئك، وإلاّ فسنعاقبك عقاباً شديداً، لتكون عبرة لمن يعتبر، كي لا يتجرأ أحد بعد الآن أن يظهر مثل هذا الفضول، وقلة الأدب.

انحنى الفتى يقبل يدي السلطان قائلاً: أنا ممتنٌ وسعيد لأن رأي الملك استقر على هذا النحو.

تعجب الناس المحتشدون خارج البلاط مما جرى، وتساءلوا عن مصير الفتى، أما والده فقد قال: إلهي! إرحمني من هذا الولد العاق.

بعد ذلك توجّه الفتى إلى القاضي وقال له: أيها القاضي ماذا فعلت بجارية الرجل؟

أجابه القاضي الجواب المعروف: إنها ذهبت إلى الحمام ولم تعد، وإنها قتلت...

قال الفتى: يجب أن تكتب لنا تعهداً شرعياً، بأن لنا الحق في معاقبتك إذا ثبت كذبُك.

خاف القاضي من هذا الكلام، ولكنه قال في نفسه، إذا كان السلطان لم يستطع إثبات شيء علينا، فماذا يمكن باستطاعة هذا الفتى أن يفعل؟ ولذلك كتب تعهّداً وسلّمه إلى الفتى.

أمر الفتى أن يودَع القاضي في السجن، بعد أن أخذ منه التعهّد واحتفظ به، وأمر بإحضار جميع الذين كانوا قد وقّعوا العريضة، وسأل كل واحد منهم على حدة إذا كان متيقناً أن المرأة التي قُتلت هي جارية التاجر أم لا؟ فأكدوا جميعهم أن ذلك ليس بالأمر اليقين، ووقّع كل واحد منهم محضراً مستقلاً، وعُرضت المحاضر جميعها على السلطان.

بعد ذلك أمر الفتى بإحضار القاضي من السجن، وأمر الشهود أن يواجهوا القاضي بما قالوه، وبأن المقتولة ليست الجارية...

ثم قال الفتى للقاضي: أيها القاضي قل الصدق، فالصدق مدعاة لرضى الله، ولا يضلّ من اتبع طريق الصّدق، وأنت تعلم أن عقاب الملك أكثر مما تتصوّر، والآن ماذا تقول؟

جلس الملك في هذه الأثناء يستمع إلى ما يدور في المجلس، معجباً بسياسة الفتى وبأسلوبه في التصدّي للمظالم.

قال الفتى بعد ذلك للقاضي: أيها القاضي! أنت كنت من أهل الشرع مدة طويلة، فإما أن تقول الصّدق، وإما أننا سنرسل إلى منزلك عدة أشخاص يحضرون الجارية بالقوة.

اضطرب القاضي وعَرَف أن أمره سيفتضح، فأحنى رأسه مؤثراً الصمت.

أرسل الفتى بعد ذلك ثلاثة من خدم القصر إلى منزل القاضي، لاستجواب الجواري والغلمان والخدم، وأنذر المبعوثين، إن هم كذبوا، أو احتالوا، أو أخذوا رشوة من القاضي، أن يعاقبهم أشدّ العقاب.

ذهب الغلمان إلى منزل القاضي، وأول ما فعلوه، أن قبضوا على طفل صغير، كان على علم بأمر الفتاة، وهو الذي كان يحمل إليها الماء والخبز كل يوم، استجوبه الخدم فقال لهم دون تردد، إنها في المكان الفلاني، وهو لا يعرف حقيقة ما يجري، ولا يعرف نوايا القاضي.

اتجه مبعوثو السلطان بصحبة الفتى إلى المكان المعين، فأخرجوا الفتاة، وحملوها إلى بلاط السلطان، الذي تعجّب حين رآها، وسألها عن قصتها، فروت له ما جرى بالتفصيل؟ ثم أُحضِر القاضي، وأعيدت الأقوال على مسامعه...

تأثّر الملك كثيراً مما رأى وسمع، فطلب التاجر، وأنعم عليه، وأعاد إليه الجارية، والأموال التي كان قد أعطاها للقاضي، وأمر بمحاكمة القاضي، وإحراقه بالنار.

ثم سأل الفتى عما يطلبه مقابل ما فعل، فقال الفتى: الأمر للسلطان.

قال السلطان: ستكون وزيري، ثم أمر أن يؤخذ إلى الحمام، ويُعطى رداء الحكم، والركوبة والأسلحة المرصّعة، والبيت والأواني والأثاث، وكل ما يتطلّبه مقام الوزارة.

هذا الفتى هو الوزير الأعظم (الخواجة حسن ميمندي الذي تسمع عنه) والذي أوصل أباه بسبب جرأته إلى أعلى المراتب.

ـ وهكذا أيها الفأر: خفِ الله، وابتعد عن المكر والاحتيال، لأن النتيجة لن تكون إلاّ السمعة السيئة والخجل والنّدامة.

لقد أوردت لك هذا المثل لتّتعظ به، وتكون منصفاً بحق نفسك، وبحق غيرك.



العقل والخرافة

قال الفأر: أيها الملك! لستُ من أهل الشّرع لأتّعظ بهذه القصة، ولكن أنت الذي يجب أن يتّعظ، ويكـون أشد ملاحظة، ويعرف أن أهل الله هم أصحاب الكرامات.

قال القط: الذين تسميهم أهل الله، هم أهل الشيطان، والله عزّ وجلّ قال: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾[٤٢]، وكل من عصى الله والرسول(ﷺ)، «فقد اتخذ الشيطان ولياً» و«من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خَسِرَ خسراناً مبيناً»...

قال الفأر: أيها الملك! لقد شرحت لك قبل الآن حال المتصوّفة وكراماتهم، وقد رددت أقوالي، دون أن توضّح سبب بطلانها، وأوردت آيات وأحاديث، لا علاقة لها بالموضوع.

قال القط: ما ذكرته أيها الفأر محضُ خرافة، انتبه واسمع لأشرح لك سبب بطلان ما ذكرت.

---

(٤٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، اللية ٢٥٧.

قال الفأر: ماذا تقول في موضوع الشيخ الذي قال: دم مجد الدين، دم خراسان، دم مجد الدين دم العراق، دم مجد الدين دم بغـ... وأراد أن يقول داد فوضع أحد المريدين يده على فمه، فلم يستطع إتمام لفظة بغداد، لأنه إذا أتمّ كلمة بغداد، سيقتل أهل بغداد عن بكرة أبيهم، وأنت تعرف ما فعله هولاكو خان في خراسان والعراق. فماذا تقول في هذه القضية؟

ـ أيها الفأر: استمع إليَّ جيداً وانصت لتعرف وجه الباطل في هذه القضية:

أولاً: إن الله رحمن رحيم، يأمر بالرحمة والكرم، ولا يحرم مخلوقاً من رحمته وبخاصة الإنسان، الذي أسبغ عليه نِعَمه وجمّله بالعقل والتمييز والتدبير والتفكير والتخيّل والنطق والقابلية، وخلق له الأرض ميداناً للعمل ومكاناً للسكن، وسخّر له الكائنات، وزيّن له السماء الدنيا بمصابيح، وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً، ولا أحد يستطيع أن يحصي نِعَم الله من أجل الإنسان... فلقد أنزل الكتب والصحف على الأنبياء والمرسلين لهداية الناس رحمة وشفقة، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... فكيف يأذن الرحمن أو يرضى أن تفنى آلاف الأنفس من أجل تلميذ أحد المشايخ، وبسبب دعاء ذلك الشيخ؟

ألم يحرّم الله قتل النفس بغير الحق، ويحدّد أنواع القصاص والآيات؟ إن الاعتقاد بأن ما جرى (على يد هولاكو مثلاً)، كان برضا الله مخالف لصريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لذلك فإن هذه الحكاية باطلة، بعيدة من الحقيقة.

وكذلك فإن إبراهيم(ع) كان يعرف الاسم الأعظم، وكانت قوته

عظيمة، دعا مرة على اثنين كانا يأتيان الفاحشة فماتا، ودعا مرة أخرى على آخرين بمثل دعائه الأول فماتا على الفور، وثالثة قبل أن يدعو: نزل عليه الوحي قائلاً: يا إبراهيم لقد استجبنا لدعائك وأهلكنا أربعة أشخاص، وإذا تابعت أسلوبك لن يبقى على وجه الأرض أحد بعد زمن قصير، نحن أرسلنا التوبة والإنابة للعاصين، وبيّنا طريق الجنة وطريق جهنم.

إن حضرة إبراهيم على الرغم من قربه ومنزلته عند الله، لم يعطَ الإذن لقتل العصاة وإهلاكهم، فكيف يمكن لشخص لا يُعرف ما هو مذهبه على وجه اليقين أن يقتل آلاف الأنفس في مجزرة عامة بسبب دعائه؟

فلنتأمل كيف تمكّن هؤلاء بمثل هذه المزخرفات والأباطيل أن يضلوا الحمقى ويجعلوهم أتباعاً لهم.

إن نبيّنا محمد (ﷺ) في حربه مع الكفّار، وقد آذوه، رفع يديه إلى السماء، داعياً الله عزّ وجلّ أن يغفر لقومه لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

فلتلاحظ أيها القارئ كيف كان موقف الرسول(ﷺ) من القوم الظالمين، وماذا تقول في شيخ أهلك المدن والقرى بلا ذنب ولا جرم؟

إن الحديث عن هذا النوع من الكشف والكرامات منتهى الجهل والحماقة، لأنك تكون قد وضعت الشيخ في مرتبة أعلى من مرتبة النبيين، أو أنت تكذّب روايات الرسول وأحاديثه.

حتى وإن كان للشيخ مثل هذه المنزلة عند الله عزّ وجلّ، وبإمكانه

أن يهلك الآن الأنفس بالدعاء، فهل يليق به أو يجوز له أن يدعوَ بمثل هذا الدعاء؟

ثم ما هذه الخرافة التي تقول إن نصف أهل بغداد قتلوا والنصف الآخر نجوا من الموت! متى وقع هذا الأمر وأي عقل يتقبله؟

أخرجِ الفأر رأسه من الجحر وقال: هذه الوقائع تحدث بمشيئة الله عزّ وجلّ وحكمته وقضائه، ولا رادّ لقضاء الله.

قال القط: الحمد لله، لقد ظهر الآن كذبك، أنت لا تخجل من الكذب، لذلك افتُضِح أمرُك، إذا كانت الحكمة الإلهية اقتضت ذلك الحدث، فلا علاقة لدعاء الشيخ بما جرى، ويكون هو قد ادّعى ذلك زوراً وبهتاناً، أما الذين يحسبون هذه التفاهات من الكرامات، فهم قطعاً جهلة، أغبياء، أتباع الماكرين.

هذا شبيه بقول قائل إن أباه مثلاً قد دعا الله أن يعمّر بغداد، فاستجاب الله لدعاء والده وجعل العراق معموراً، إن هذا النوع من الكذب لا يقبله العقلاء.

ـ أيها الفأر: إن الشيطان هو الذي أضلّ الإنسان وأغواه، وجعله ينحرف عن الصراط المستقيم، فعطّل عقله وإدراكه وقدرته على التمييز، وانحرف عن جادة الصّواب إلى صحراء الضّلالة والضّياع والهلكة، وصدق كلام الحمقى، وبات لا يميز بين الحق والباطل وبين الرواية الصحيحة والخرافة.

ـ أيها الفأر: إن كلامك شبيه بقصة الرجل والمرأة اللذين اشتعلت بينهما نيران الخلاف من أجل اللحم، على الرغم من تنبيه الرجل الدائم لزوجته ونصحه لها:

يحكى أن رجلاً كان قد ابتُلي بزوجة عنيدة، نهمة، قليلة الأدب،

وكانت لشدة نهمها تصنع اللحم الذي يحضره زوجها إلى البيت شواء وتأكله كله على دفعات، وتقدِّم الطعام لزوجها خالياً من اللحم، أو تضع فيه النزر اليسير، لذلك قلّل الزوج من شراء اللحم، إلاّ حين يأتيه ضيوف.

في أحد الأيام، وقد دعا صديقاً لزيارته، اشترى نصف منٍّ[٤٣] من اللحم، وطلب إلى زوجته أن تحضر الطعام للضيف، وخرج هو إلى عمله.

حين خرج الزوج من المنزل، انتهزت الزوجة النّهمة الفرصة، فجعلت نصف اللحم (قيمة)[٤٤]، وأكلته، وأودَعت الباقي عند جيرانها، وديعة تستردها في وقت آخر، حين تشتاق إلى أكل اللحم ثانية.

لما عاد زوجها وسألها إذا كان الطعام قد نضج، قالت: لا، فأنا قد سهوتُ قليلاً فأخذت القطة اللحم.

لما سمع الزوج هذا الكلام خرج من المنزل غاضباً، فوجد القطة في طريقه، فحملها ودخل المنزل وطلب إلى زوجته أن تحضر الميزان، ولما وزن القطة وجد أنَّها نصف منٍّ، فقال:

ـ أيتها المرأة، أنظري: إن وزن القطة نصف منٍّ فأين ذهب اللحم؟ وإذا كان هذا وزن اللحم فأين القطة؟

ضربها إلى أن كلَّت يده وهي على إنكارها، حتى أُغمي عليها، ولما استفاقت قالت: الحقيقة أنني أكلت قسماً، ووهبت الجيران الباقي.

(٤٣) المن: وحدة للوزن تختلف قيمتها باختلاف الأزمنة والأمكنة، تعادل ٣ كلغ تقريباً.
(٤٤) القيمة: نوع من الطعام يطبخ باللحم المفروم (تركية).

وإذاً أيها الفأر! إذا كانت المجازر التي وقعت في تلك البلاد زمن هولاكو بمقتضى الحكمة الإلهية، فما هو دور الشيخ في ذلك؟ وإذا كان ما وقع بسبب دعاء الشيخ فما علاقته بالحكمة؟

إن من يصدّق هذه الأقوال ويرويها، يجب أن يزجر ويعاقَب كما عاقب الرجل زوجته الكاذبة، فيمتنع عن الكذب كما امتنعت هي.

ـ أيها الفأر: لديَّ سؤال، أريدك أن تجيبني عنه بصراحة وصدق.

ـ قال الفأر: أيها الملك! إذا كنتُ قد قرأتُ أو سمعت[٤٥] الجواب فأنا مستعد، إسأل لنرى.

قال القط: إذا ارتكب جاهل المعاصي ثم تعلّم وفهِمَ وتاب، وعاد إلى حظيرة الدين، أيغفر له الله تعالى ذنوبه أم لا؟

قال الفأر: بلى، إن الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهو غفار الذنوب.

قال القط: إذا صادف أن شخصاً عالماً، عاقلاً، تقيّاً، صالحاً، كان يحج إلى الكعبة ويطوف، في موسم الحج والعمرة، ويزور العتبات المقدسة خاضعاً لله خاشعاً؛ وفجأة ارتدّ، وصار يشرب الخمرة، وربط على خصره الزّنار[٤٦]، وصار يرعى الخنازير، وترك العبادات، أيعدُّ هذا الشخص صاحب كرامات؟

قال الفأر: إنه مرتد، ويجب أن يُرجم، ولن تطهّر النار ذنوبه.

قال القط: ما هو حال الذين يعتقدون أن هذا وأمثاله أصحاب كشف وكرامات، ويعدونهم مرشدين لهم؟

---

(٤٥) نقد للّذين يردّدون ما سمعوا أو قرأوا دون تبصّر ولا تدبّر.

(٤٦) الزنار: شعار الزرادشتيين.

قال الفأر: إنهم جهلة، غافلون، وهم مجانين أو كفّار.

قال القط: ألديك أقوال أخرى في هذا الباب؟

قال الفأر: ليس لديَّ كلام آخر بهذا الخصوص.

قال القط: ورد في تذكرة أحد المشايخ، أن شخصاً في مكة المعظمة زادها الله شرفاً وتعظيماً، رأى في منامه أنه زار الكعبة بصحبة ثلاثمئة من مريديه، وشرب الخمر وعبد الصّنم وربط الزنّار، ورعى الخنزير، وقد ارتكب هذه المحرّمات من أجل عشيق نصراني[٤٧]..

ماذا تقول أيها الفأر! أيعدّ هذا أيضاً من جملة الكرامات؟

قال الفأر: مثل هذا الشخص ليس صالحاً ولا عاقلاً، وإنما هو جاهل مجنون.

ـ أيها الملك! الإنسان معرّض للخطأ، فهو مخلوق من عناصر متنوعة، والشيطان المضلّ يقف له بالمرصاد، يزيّن له الشر والمعصية في كل آن، ويُحتمل أن يسهو ويخطىء، لذلك لا يجوز لنا، إذا ضلّ إنسان، أو شطح أن نقيس الجميع عليه..

بعد أخذ ورد وكلام كثير حول هذا الموضوع، قال القط: أيها الفأر! سمعت منك الكثير من الأباطيل، لا أتذكرها الآن كلها، فاذكر لي أنت ما لم أجبك عنه!

قال الفأر: أيها الملك! يتضّح أنك لا تفهم معنى الغيبة والنميمة، وهذا مكروه، ومع ذلك فأنت حر.

(٤٧) ورد في أشعار المتصوفة الحديث عن شرب الخمر وعبادة الصنم وربط الزنّار، مجازاً.

قال القط: أَوَتعدّ أيها الفأر ما ذكرته لك غيبة؟ أم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نظرك خبث وغيبة؟ ألم يرِد في القرآن المجيد أن كثيراً من الأقدمين كالنمرود وثمود وعاد وفرعون كانوا من أهل الكفر والضلال؟!

أَوَلمْ يرد ذكر المنافقين والفاسقين، والخير والشر والوعد والوعيد؟ أتعدُّ هذا أيضاً خبثاً وغيبة؟

ـ أيها الفأر: إذا حكيت أنت للناس، كيف تمكّنت أن تتخلص من براثني قبل أيام، أيعدُّ هذا من الغيبة أيضاً؟

قال الفأر: لا!

قال القط: يجب أن تعرف حقيقة الخبث والغيبة!

الغيبة تعني أن تتحدث عن إنسان مؤمن من وراء ظهره، حديثاً لا تجرؤ أن تواجهه به، أو حديثاً مختلقاً غيرْ لائق، هذه هي الغيبة، والخبث أن تصف إنساناً بأنه قليل الصبر، مشوّش التفكير، يأكل أموال الناس، وأنه وضيع الأصل وكلام من هذا القبيل، وهذا الأمر يُعدّ نفاقاً وجهلاً وحمقاً وضلالاً من المتكلم والمستمع على السواء. وأما مغزى قولك أن ليس من سرٍّ يخفى على الله تعالى، فمعناه أن مكنونات النفس سرٌّ إلهي، لا يسبر غوره إلاّ من صفت سريرته وتوصّل إلى مرتبة العرفان[٤٨]، وأن الله تعالى لم يخلق شيئاً باطلاً، وكل شيء خلقه لمصلحة وحكمة، وبما أن الإنسان لا يدرك كنه الأمور فقد سُميت أسراراً، وهذه الأسرار تختلف أيضاً بمقدار ما تتفاوت.

(٤٨) يريد الكاتب هنا أن يميّز بين ما هو تصوف طرائقي، شكلي، وبين ما هو تصوف حقيقي وعرفان.

وبعض الأسرار الإلهية بعيدة عن إدراك معظم الناس، وقليل منهم من يستطيع بالعقل والقلب إدراك آثار القدرة الكاملة، فبقدر ما يتعلّم الإنسان ويعقل ويتفكّر ويتعبّد، بقدر ما تنير آثار القدرة الإلهية قلبه وعقله.

والبعض الآخر لا يعرفون الله ولا يدركون آثار قدرته ورحمته، يقولون كلاماً باطلاً، لا يؤيده عقل ولا نقل، يسمّونه «الأسرار الإلهية»، هذا النوع من الأسرار يشبه الإغماء أو الغياب عن الوعي، كأن يشمّ درويش جاهل حشيشة الكيف، ويحس بالجوع الشديد، فيأكل بنهم، فيزول علمه ويتعطّل عقله، وتحمله أخيلته إلى الهند، حيث يركب الهودج والفيل، ويرى رؤى خيالية من أثر البطنة وتأثير الكيف. وعندما يرى الدراويش الجهلة هذا يسمون التخيلات الباطلة السر الأعظم أو أسرار الله.

- أيها الفأر: إن السر الذي يراه الدراويش بتأثير الحشيش، مثل هذه الأسرار والرموز التي تعتقد بها هذه الفرقة الضّالة.

قال الفأر: أيها الملك! أريد أن أسألك سؤالاً، وأرجو أن تجيبني عنه بعد تفكير وتأمّل، ليهدأ بالي وأعلم ما هو التصوّف ومن هو المتصوّف؟

قال القط: أيها الفأر! إن لفظة «صوفي» مشتقة من كلمة الصّوف، وقد سموا أيضاً «أهل التحقيق»، وصاد صوفي من الصبر، وواوه من الوفاء وفاؤه الفقر والفاقة، وكثيرون قالوا إن الصّوفي يعني الإنسان المستقيم، الطيّب السريرة، الطاهر، الصالح، الصحيح المعتقد، الذي يخلو قوله وفعله من المكر والحيلة والكيد والخداع والحماقة والسّفاهة، والذي فهم فهماً صحيحاً صادقاً صافياً، ما

وصله من الله والرسول، وليس الصّوفي من مارس ديناً خاصاً، وادّعى معرفة غير المعرفة المنقولة عن النبي وأئمة الهدى، معرفة غير مبنية على الدين ولا على العقل، وإنما هي مبنية على التقليد وهوى النفس وخداع الشيطان. الصوفي يجب أن يكون صالحاً، ومن ليست هذه حاله، أي من لا يتطابق عنده الاسم والمسمى، يكون بلا فائدة وبلا ثمرة، كأن يُسمى الحدّاد طبيباً، ويسمى الخياط صائغاً، ولا فائدة من إطلاق اسم على غير صاحبه سوى الكذب على الذّات وعلى الآخرين.

ولكن إذا سُمّيَ شخص صالح صوفياً، فلا شك أن إطلاق ذا الاسم عليه صحيح ولا عيب فيه.

وكلما ترك الصوفي التقليد والعناد، وعمل بوحي الشرع الشريف، وكان صادقاً في سلوكه، سيكون صوفيّاً حقيقياً، أما إذا كانت مطالبه وسلوكه تقليداً ورياء وكيداً وخداعاً، وتسمى أو سُمي بالصوفي، فإن ذلك شبيه بأن يُسمى المجرم نفسه طاهراً.

وإذا سميت النجس طاهراً فإن ذلك لا يعني أنه سيصبح طاهراً وقد قيل لا تسمي الزنجي كافوراً، لأن الجهّال والبلهاء والأغبياء، إذا ما سمعوا كلمة صوفي أو طاهر يحسنون الظن بصاحب هذا الاسم.

قال الفأر: آمنت بكلامك وصدّقته

قال القط: قولك هذا شبيه بشركة ذينك اليهوديين:

● يُحكي أن رجلين من مدينة كاشان، كانا يمتلكان معاً متجراً صغيراً لشراء البطيخ وبيعه.

وكان أحدهما هو الذي يشتري ويبيع بصورة مستمرة، فيما يقضي

الآخر وقته في التجوال والنزهات، ثم يأتي آخر النهار ليقاسم شريكه الأرباح.

جاء مرة وسأل زميله:

ـ أبعتَ شيئاً اليوم؟

ـ قال الآخر: لا والله!

ـ قال: أكلت شيئاً من البطيخ؟

ـ قال: لا!

ـ قال الأول: إذاً، أين البطيخة الكبيرة التي كانت هنالك أمس؟ أين ذهبت؟ لا وجود لها الآن!

ـ أكان معك رفيق حين أكلتها، أم أكلتها وحدك؟

ـ أود أن أعرف من هو صديقك؟

ـ قال الشريك: أيها الرجل! أقسم بالله أنني لم آكل بطيخاً، ولا رفيق لي.

ـ قال الأول: لم أرَ شخصاً بهذه الأخلاق النّزقة، وبهذه الحدّة، يغضب بسرعة ويقسم من أجل لا شيء. متى انتقدتك أنا من أجل بطيخة؟ غرضي من السؤال أنني أخاف أن تكون قد أكلت البّطيخة وحدك، فيصيبك ضرر كبير لأنها كانت كبيرة جداً.

ـ قال الشريك: أقسم بالله والأنبياء والدين وبما تريد، أنني لم آكل بطيخاً.

ـ قال الأول: لِمَ هذه الحدة، إذا سمع أحد ما تقول سيظنُّ أنني أضايقك من أجل بطيخة، احترس يا أخي من الغضب من أجل

شيء تافه! أريد أن أعرف فقط ما هو مصير بذور البطيخة، فالبطيخة فداءُ رأسك، كُلْها ولا تكترث...

وعندما سمع الرجل هذا الكلام، فقد صبره، وأقسم بالدنيا والآخرة، والمشرق والمغرب، وموسى والأنبياء أنه لم يأكل شيئاً.

ـ قال الأول: هذا القسم تقسمه أمام الغريب، وليس أمامي، لأنني صدّقت وآمنت أنك لم تأكل، ولكن ليس مستحباً أن تكون أخلاقك بهذه الحدة...

والحاصل أن الشريك المسكين قال بعد أخذ ورد، يا أخي أنظر: لماذا أنت غير مصدّق إلى هذا الحد، لم يبق قَسَمٌ لم أذكره، ماذا تريد مني بعد؟

هذه البطيخة التي تذكرها احسب قيمتها إذا بيعت، وانقص ثمنها من حصّتي.

ـ قال الأول: أيها الصديق، أنا لا أريدها ولا أعرف قيمتها وأقسم أنني لن أعاود الحديث عنها، ولكنني أريد أن أعرف فقط، إذا كنتَ قد أعطيتَ قِشَر البطيخة للحصان، أم للفرس، أم أنك رميته بعيداً؟

فَقَدَ المسكين صبره وقدرته على الاحتمال، فمزّق قميصه، ويمّم شطر الصحراء.

ـ أيها الفأر: أنت أيضاً طلبت مني مئة دليل على كل كلمة قلتها، وقبلتُ، وها أنت من جديد تطلب أدلة!

عندما سمع القط من الفأر هذا الكلام فضّل السكوت.

قال القط: أيها الفأر لماذا سكت؟

قال الفأر: لا يجوز أيها الملك أن توجِعَ رأسنا أكثر من هذا فلتشفق علينا لنرحل، ونؤجّل الحديث إلى وقت آخر، لأنه قيل: إذا بقي الحبيب لم ينقطع الحديث.

قال القط: حسنٌ، إذهب الآن إلى بيتك، ونحن نذهب أيضاً، ولكنني أتمنى عليك أيها الفأر أن تسامحني، فأنا أنوي السفر إلى خراسان، وأخاف أن يأتي أجلي قبل أن نعود ونلتقيَ مرة أخرى.

وقد قيل:

أوقعني حظي العاثر في الغربة فسافرت ناقلاً مراكبي

من أي نبعٍ سأشرب الماء يا إلهي، وأين سيستقر ترابي؟

عندما سمع الفأر من القط هذا الكلام، امتلأ جذلاً، وقال في نفسه:

- يا لها من بشرى، سيرحل إلى خراسان ويريحنا من المشقّة والعناء...

قال الفأر مجاملة: إن شاء الله تعالى نراك من جديد أيها الملك، وقد عُدت بخير وعافية.

ثم بعد المجاملات هذه، ذهب الفأر إلى بيته، وسار القط مسرعاً وهو يقول:

الآن أكمن في هذه الزاوية، لعلّني أستدرج الفأر وأوقعه في براثني من جديد، وصادف أن كان في الزاوية ميزان قديم فاختبأ القط وراءه.

أما الفأر فإنه بعد أن عاد إلى بيته، قال في نفسه، لقد ذهب القط

الآن، لذلك يجب أن أغتنم الفرصة، وأخرج للنزهة، لأنني متيقّن أن القط ليس في هذه النواحي.

خرج الفأر من بيته يقفز ويرقص جذلاً وهو يقول:

أنا سعيدٌ الآن وقد ذهب العدوّ الذي كان يجثمُ فوق صدري

لقد تحرّرت من الغصّة والألم والوجع وأبصرْتُ بابَ النجاة

إنني لا أرى وجه الخصم الآن، كنت الطريدة، فصرتُ الصَّيّاد.

وظل على هذا المنوال يلحّن ويغني ويردّد الأشعار الغريبة وهو يرقص. وفي هذه الأثناء أبصر القطُّ وراء الميزان، فقال في نفسه: اصبر ولا تتعجّل، فإن الصّبر مفتاح الفرج، ولقد قال الشاعر:

الصَّبر كالصَّبرِ مرٌ في مرارته

لكن عواقبه أحلى من العسلِ

.. ثم أخذ الفأر يقترب شيئاً فيشئاً من الميزان...

وأما القط فقد نهض خوفاً من أن يجد الفأر مهرباً، ودحرج سنارة وعلّق الفأر من بين يديه ورجليه، فأمسكه، وقرأ هذا البيت وهو يتصبّب عرقاً:

ضيعتك يا حبيب القلب وها قد وجدتك من جديد؛

ـ أيها الفأر! كيف حالك؟

قال الفأر: أيها الملك! لم يبق لي حال، وأنا الآن في النزع الأخير.

قال القط: لا تقلق، فأنا لا أضمر لك السوء.

قال الفأر: إن أنا صدّقتك أكون فاقدَ العقل.

قال القط: لماذا لا تصدّقني؟ أتراني قد كذّبتك أنا ولم أصدّقك عندما جلست أنتظر الطائر المشويَّ والحساء؟

ـ أيها الفأر! يا حبيبي، ويا عمري، ويا مراد الروح والقلب! ما أسعد الساعة التي أنار فيها مرآك بصري! أي وصالٍ كهذا الوصال؟ والله ما من أحد تذوق شهداً أحلى، ولا حياة أهنأ...

الحمد لله ربّ العالمين، أحمد الله عزّ وجلّ وأسبّحه، لأنه مكّنني من نيل المراد، وتحقيق الأمل.

أحنى الفأر رأسه خجلاً وندماً، والدموع تنهمر من عينيه، وتألّم من الحَيْرة والخوف والقلق.

قال القط في نفسه: إذا أنا قتلته فوراً، سأحزن من أجله، وإذا تشاغلت باللعب، أخاف أن يجد طريقا للخلاص.

لذلك أخذه بعيداً عن بيته، وكسر له يديه ورجليه بأسنانه وطرحه أرضاً وقال: السلام عليك أيها الفأر.

لم يتمكن الفأر من الإجابة بعد أن أصابه ما أصابه.

قال القط: لِمَ لا تجيب؟

قال الفأر: أيها الملك! لم أتوقّع منك هذه المعاملة، لأنك طالب علم، ورب العالمين قال: «الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» والرسول(ﷺ).

قال: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

أتعجب كيف يتمكن الملك، مع لطفه ومروءته أن يكون قليل الرحمة إلى هذا الحد.

في كل الأحوال أنا أعتقد أن الملك، بمروءته المتأصلة، سوف يسامحني بعد أن يهدأ غضبه ويستكين، ولا يجوز أن أبقى أنا المسكين هكذا بلا يدين ولا رجلين، ويتشرّد عيالي وأطفالي..

ابتسم القط عند سماع هذا القول، وقال: أيها الفأر أين أصبحت «القورمة» و«اليخنة»؟

قال الفأر: ألم تسمع ما قيل: «إذا ما اسودّ حظّ المرء، فجميع مساعيه باطلة».

ما الحيلة، إذا كنت قد تغافلت، وأصابتني هذه المصيبة الآن لسوء طالعي، وها أنذا أموت ظلماً بسبب الجهل.

قال القط: أنت الآن أسيرٌ في يدي، مصيرك الموت، وجوفي سيكون مستقرّك في النهاية، تأمل جيداً، ترَ أنك بغير العمل لن يفيدك تخرّص المتصوّفة.

قال الفأر: أنت نفسك قلت: إن المتصوّف الذي يترك التعلّق بالدنيا لا بد أن يصل إلى المعرفة، فصالح العمل واصل إلى رحمة الله الجليل، والعاصي واصل إلى الدرك الأسفل من النار...

قال القط: فلينفعك الآن ما ذكرته عن أولئك الذين اختاروا العزلة، ولو كنت منصفاً لعلمتَ أن تلك الحلوى الإلهية[٤٩]، التي ذكرت أنها من نصيب أدعياء التصوّف في عزلتهم، إذا كان أمرها صحيحاً، لكان كلُّ نبي دعا أن تكون من نصيب أمته وأوصيائه

(٤٩) هذا القول يذكرنا بالأسماء التي أطلقها البهائي على مثنوياته الفارسية: «الخبز والحلوى»، «الحليب والسكر»، «الخبز والجبن». (راجع: بهاء الدين العاملي أديباً وفقيهاً وعالماً، فصل: «شعره الفارسي».

وأصحابه، وما دام أصحاب الرسول وأوصياؤه، لم يصلوا إلى هذه المرتبة، فكيف تسنّى لشيخ قليل العلم أن يحصّلها؟

وإذا قلت إن الأنبياء يعلمون، وأصحابهم وأوصياؤهم يخشون، معنى ذلك أنهم أتّهموا الأنبياء ونسبوا إليهم التقصير في تبليغ الرسالة.

- أيها الفأر: أتعلم ما هي تلك الحلوى؟

قال الفأر: لا!

قال القط: إنه أثرُ الشراب والتّرياق وأهواء النفس، الذي يشعر الجاهل الفاسق بسببه بجذبة، يشمئز فيها العلماء العقلاء.

مثل أولئك المجذوبين كمثل رجل رُمي في بحر عميق بعيد لاالقرار، وهو بلا يدين ولا رجلين، ولا يعرف السّباحة، فهو إما سيغرق حتماً أو سيكون طعاماً للتماسيح وبهائم البحر.

إن أدعياء التصوّف أولئك، ألقوا بأنفسهم في بحر الفكر العميق، والخيال البعيد، بدون سفينة الشرع، أو قارب الحقيقة، وبدون ملاّح العلم والربّان المرشد، وهم يجهلون السباحة، فوقعوا فريسة تمساح الشيطان، وفي دوامة بحر البطلان، والشيطان يغريهم ليضلّهم كل آن بأسلوب وطريقة مختلفين، إلى أن يصلوا إلى درجة يظنون فيها أنهم نجوْا من البحر العميق، وتخلّصوا من الدّوامة، واصطادوا من الأعماق جوهراً برّاقاً.

وبما أن رب العالمين عالمٌ بأفعال العباد، وسعى الشيطان الدائم

(٥٠) القرآن الكريم، سورة يس، الآية ٦٠.

لتضليلهم، فإنه قال في كتابه المجيد: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين﴾[٥٠].

ولأجل ذلك جاء الرسل ونزلت الرسالات، ولذلك أيضاً كانت قصص الماضين في القرآن وكثرة التهديد والوعيد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والمحرمات، لذلك فإن كل شخص بالغ، عاقل، مكلّف، يتبع أوامر الدين ووصايا رب العالمين، وسيّد المرسلين، وأقوال علماء الدّين المبين، لا يضلّه الشيطان، وكل من اتّبع هوى النفس وأهواءها، واتبع الشيطان، فهو مستحق للعقب في كل حين.

ـ أيها الفأر: إذا قيل عن شخص إنه كافر وهو مؤمن، لن يجعلَه قول الناس كافراً، وإذا سُمي الكافر مؤمناً، لن يطهّره اتخاذ هذا الاسم من الكفر، ألا ترى أن بين الناس من تسمّى باسم «خان» أو «سلطان»، في الوقت الذي يكون فيه صاحب هذا الاسم عرياناً جائعاً، في حين أن كثيراً من الأشخاص، يمتلكون الأموال والأنعام، ويتسمّون باسم يدل على التواضع والبساطة.

يجب أن تعلم أيها الفأر أن الاسم، لا يؤثر على الفعل سلباً أو إيجاباً، إنما يتوجب على من ترقّى ونال اسماً ولقباً، أن يعملَ ما يجعله جديراً بذلك الاسم ومستحقاً له.

يجب أن يسلك المرء مع الناس سلوكاً، لا يتيح له فرصة مؤاخذته على تقصير يبدرُ منه قولاً أو فعلاً، وأن يكون دائم الاجتناب للمعاصي والمحرّمات.

ـ وإذاً أيها الفأر: ان الصوفي يعني الصّفاء، ولذلك فإن من كان من المتصوفة بعيداً عن المعاصي، صافي المعتقد، ولا يخالف الشّرع

الحنيف فهذا هو المطلوب، أما من كان جاهلاً ضالاً، وقال: أنا صوفي، فهو كاذب متّهم ومدّع خاسر، و«سيحشر يوم القيامة مع من أحب».

قال الفأر: أيها الملك الطيبُ الذكر! إن جسمي يؤلمني، وأنت مع ذلك تشرح وتفصّل وتستطرد؛ إذا كنت تريد تقويمي وتهذيبي، فأنت قد فعلت.

اتركني الآن حراً، شفقة منك ورحمة، ولن أخالف بعد اليوم لك أمراً ولا قولاً، وسأكون عبدك المطيع إلى يوم الدين.

قال القط: إطمئن، فأنا ماهرٌ في تجبير الكسور، وسأجبّر الآن يديك ورجليك، وستتماثل للشفاء قريباً بعون الله، وستتجدد صداقتنا، ونقضي ما تبقى من عمرنا في المحادثة والمؤانسة.

- أيها الفأر: أتتذكر حديثنا عن الضيافة والصحبة القديمة والبيت الذي قرأته من ديوان سعدي:

إنزوِ أصمّ أبكمَ، مقطوع اللسان

لأنّ الحكمَ في النهاية هو لسانك

- أيها الفأر كل الكلام المتداول الآن بين المخالفين والموافقين سببه أن البعض فهموا معاني الآيات والأحاديث والأخبار فهماً صحيحاً، بكامل الإدراك والشعور، وقالوا شعراً بهذا الخصوص، والبعض الآخر لجهلهم وقلّة معرفتهم، وعقلهم الناقص، استخدموا القياس، واتّبعوا أهواء النفس، فأضلّهم الشيطان، ومعنى كلام سعدي أن قطع اللسان والانزواء، خيرٌ من الكلام بدون تفكر أو تدبّر.

ـ أيها الفأر: لقد أوقعتَ نفسكَ في براثني، عقاباً لأعمالك وأقوالك وسخريتك.

لما سمع الفأر هذا الكلام صرخ وتأوّه، وظهر عجزه ومسكنته.

إظهارُ العجزِ أمام الظالم غباءٌ

فدموع الشعراء تزيد النارَ اشتعالاً

قال القط: أيها الفأر! ذكر في الكتب المعتبَرة أن الأعضاء والجوارح تهنىء بعضها عند الصباح، لأنها تقابلت من جديد، ويسأل كل واحد الآخر عن أحواله، ولسان حال كل منها يقول: الحمد لله إنني بخير:

الشكر واجب في كل الأحوال

عسى الآتي يكون أفضل

وما دمت في حركة وسكون، يجب أن تشكر الله ليل نهار متفكراً متدبّراً، فربَّ آتٍ يكون أسوأ من حاضرك، إن قلة الشكر وعدم الرضا بالقضاء، دليل نقص في الاعتقاد وضعف في الدين والإيمان.

إن الذين يخالفون المعرفة الإلهية، ووصايا أئمة الدين المبين، ويفتشون عن مواطن الاختلاف، ويحاجّون ويجادلون بعقولهم القاصرة، ويستدلون ببراهين خاطئة، ويتلفون أموالهم وأرواحهم وإيمانهم، وأحياناً حياتهم بسبب قلة ضبطهم لألسنتهم، ويوافق حالهم، قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾.

قال الفأر: أيها الملك، مع أنني جريح، متعب، فأنا أتوقع رحمة سيدي، بأن يجيبني جواباً معقولاً، يخلّص قلبي دفعة واحدة من الشكّ والريبة والشبهة ويوصلني إلى برّ اليقين.

قال القط: إسأل؟

قال الفأر: أيها الملك! على فرض مخالفة الصوفية للحق، واختلافهم وتعسّفهم في مسلكهم، وجميع أوضاعهم، لماذا لا يبتعد عنهم الناس، ويمتنعون عن الاقتداء بهم وتولّيهم؟

ولماذا يزيد أتباعهم ومريدوهم يوماً بعد يوم؟

وفي النهاية، على فرض أنهم جهال ضالّون ومضلّون، لمَ لا يستخدم الناس عقولهم، فلا يضلّوا باتباعهم لهم؟

قال القط: أيها الفأر! إن هذا السؤال يتضمن عدة جوانب، سأشرح لك بعضها.

أولاً: إن عقل الناس وإدراكهم لا يصل إلى كنه الأمور، وهم بحاجة إلى معلّم ومرشد في كل العلوم ومنها العلوم الدينية.

ثانياً: إن أكثر ما يلقيه أدعياء التصوّف على الناس، ظنّ ووهمٌ ورياء، ولكن العامة البسطاء يظنّون أنهم يعرفون الحقيقة، وأنهم أتقياء، عرفاء...

وأدعياء التصوّف هؤلاء يقولون لمريديهم من طريق الإيماء والكناية، إن مخالفيهم ومنكريهم بعيدون عن الإيمان الحقيقي واليقين، لذلك ترى الأتباع والمريدين، اعتادوا أقوال المرشدين وشطحاتهم، وجعل الشيطان على قلوبهم سداً، فتعصبوا لهم من طريق التقليد، وأقفلوا قلوبهم عن الحقيقة والمعرفة، وارتموا في وادي الضلالة، وضاعوا في تيه الباطل. وطالما أن في عقل هؤلاء الأشخاص ضعفاً، وعلمهم ناقص، ومعرفتهم سطحية، فإن كل ما يظهر منهم، ويصدر عنهم باطل؛ وأمر آخر: هو أن جماعة الصوفية أنفسهم في ظاهر سلوكهم يعملون بوصايا الدين، صلاة وصياماً وذكراً، فيظن

بعض المؤمنين أنهم صادقو النيّة، لأنهم لا يعلمون كُنه مقاصدهم وأغراضهم الباطنية، التي هي استمالة الأتباع، والمنافع الشخصية، لهذا يزيد اعتقادهم بهم وإخلاصهم لهم يوماً فيوماً، فيفقدون إرادتهم، ويأنسون بهم، فيضلّوهم شيئاً فشيئاً، ويوقعونهم في حبائلهم، تماماً كما يصطاد الصّيادون الحمام.

قال الفأر: أيها الملك! إشرح لي أساليب صيّادي الهند والعراق وفنونهم.

قال القط: ذكر أن صيّادي الهند عندما يريدون صيدَ الغزلان، يأخذون معهم غزالاً صغيراً، يربطون قرنيه بحبل طويل، ويطلقونه في المرعى الأخضر النّضير يرعى على هواه، ويكمنون هم في المخابىء وعندما ترى الظباء البريّة أن أحد أبناء جنسها يرعى بحرية، تطمئن وتحاول تقليده، وهكذا تنشغل بالرّعي واللعب، وحين تتناطح يلتفّ الحبل الذي رُبطَ به الغزال الصّغير على قرونها، فتحاول التخلّص منه بدون جدوى.

حينئذٍ يخرج الصّيادون من مخابئهم، وحين تراهم الظّباء التي وقعت في المصيدة، تجفل وتضطرب، وتحاول الفرار، ولكنها تبقى مسجونة في شبكة الصيادين المحتالين، ولا تتمكن من الخلاص مهما اجتهدت.

أما صيّادو العراق فهم يأخذون حمامة أليفة مقصوصة الجناحين، وينثرون الحبّ في مكان يكونون قد أخفوا فيه فخاً مخصّصاً لصيد الحمام، ويتركون الحمامة الأليفة، تلتقط الحب، وعندما ترى الحمائم البريّة حمامة فارغة البال تلتقط الحب في صحراء واسعة، تحاول تقليدها فتنزل إلى الأرض وبينما تكون هي مشغولة بالتقاط

الحب، يسحب الصيّادون المختبئون في الكمائن طرف الفخ المدفون في التراب ويصطادونها دفعة واحدة.

- وهذا المثل يشبه ما تفعله جماعة الصّوفية، وذلك الصياد الماكر هو الشيطان اللّعين، والأشخاص الصادقون البسطاء، قليلو العقل، مَثَلُهم كمثل الظّباء والحمائم، لأنهم عندما يرون أبناء جنسهم، ويرغبون في المؤانسة، يقعون في حبائل إبليس وأدعياء التصوّف، الذين يلجأون إلى الرّياء والأوهام، فيجعلون قلوب الناس البسطاء، تتعلق بهم كما فعل ذلك الدرويش الذي أقنع الملك والوزير ونائب الملك أنه قد خاط منديلاً وهمياً.

نفاق أهل البلاط

● ذُكر أنه كان في قديم الزمان ملك في خراسان، وكان في المملكة درويش، وللدرويش مريدٌ شاب، وكان المريد لا يعرف أكثر من بضعة أبيات من قصيدة قالها الدرويش.

التقى المريد الشاب مرة بالملك في أول الطريق المؤدية إلى المدينة، فما كان منه إلاّ أن استوقفه، وألقى أمامه ما يحفظ من قصيدة الدرويش، ومع أن المريد قرأ الأبيات القليلة بصوت يشبه النّعيق، ومع أنه لم يحافظ على الوزن، إلاّ أن الملك سُرَّ منه كثيراً وأعطاه مبلغ إثني عشر تومان ذهبي نقداً.

حمل المريدُ الشاب المال إلى الدرويش، وحكى له قصته مع الملك، فقال الدرويش في نفسه، إذا كان الملك قد سرّه سماع أبيات قليلة غير موزونة من القصيدة، فماذا سيكون موقفه إذا سمعها من صاحبها موزونة مغنّاة، ربما أعطاني مبلغاً كبيراً من المال، أو أنه سيأمر لي بإيراد سنوي.

ولذلك فإن الدرويش، بعد أن أنفق الاثني عشر تومان مع مريديه، ذهب ينتظر مرور الملك على قارعة الطريق، وهو يمنّي النفس بالإنعام والهبات، وصادف أن الملك في ذلك اليوم خرج مع أركان دولته للنزهة؛ عندما رأى الدرويش مظاهر الأبهة، ركض نحو الملك، واستوقف الموكب، وشرع يقرأ قصيدته، لم ينهِ الدرويش إلقاء بضعة أبيات حتى أظهر الملك امتعاضه واشمئزازه، ومع ذلك استمر الدرويش في القراءة، فما كان من الملك، إلاّ أن أمر بقتله..

قال الدرويش للوزير الذي أحضر الجلاّدين لقتله؛ ليتك تخلصني من الموت فأكون مفيداً جداً لك، لأنني أستطيع أن أصنع أشياء، لا أحد على وجه الأرض يعرف سرّها.

قال الوزير: أيها الدّرويش، ماذا يمكنك أن تصنع؟

قال الدرويش: من بعض ما أحسن صُنعه، أنني أستطيع أن أنسج نسيجاً خيالياً للعمامة[٥١]، لم ترَ عينٌ مثله، ولم يضع ملك على وجه الأرض مثله على رأسه، وله خاصية أخرى، وهي أن ابن الحلال يستطيع أن يراه، أما ابن الحرام فعاجز عن رؤيته، أما نسيج هذه العمامة، فلا يستطيع نسّاجو العالم تقليده.

فأمر الوزير أن يؤجل قتل الدرويش إلى أن يعرض المسألة على الشاه؛ طلب الملك الدرويش وقال: أيها الدرويش! أتستطيع أن تصنع لي عمامة لم يُرَ لها مثيل؟

قال الدرويش: جُعلتُ فداك، إذا أمهلتني، فإنني سأصنع لك عمامة

(٥١) في زمن البهائي: كان الشاه عباس والقُزلباش المحيطون به يضعون عمائم مزينة مزركشة، وكلّما كانت العمامة أكبر وأكثر زينة، كلما دلّت أكثر على علوّ مكانة صاحبها ومنزلته.

لم ترَ نواظر الأفلاك مثلها، لا يراها إلاّ أبناء الحلال، أما ابن الحرام فإنه محروم من رؤيتها.

ثم إن الملك أمر بتسليم مبلغ من المال إلى الدرويش، ليشتري أدوات صناعته. عندما أخذ الدرويش مبلغ المال، من خزنة الملك، ذهب يقضي أوقاته في اللهو والمرح والإنفاق، إلى أن انقضت مدة.

قال الملك ذات ليلة: أيها الوزير! لم يظهر أي أثر للعمامة المنتظرة، لذلك أرسل الوزير في الصباح التالي أحد أتباعه وأمره أن يحضرَ ما أنجزَ من نسيج العمامة ليراه الملك.

عندما وصل التّابع إلى بيت الدرويش، وسأل عن القماش، تقدّم الدرويش من نول الحياكة كمن يحمل طرف شيء في يده، وقال للرجل: أنظر إلى جمال اللون، ولطافة الصّنع، بربّك هل رأيت في حياتك مثل هذا النسيج؟

أمعن الخادم النظر في جميع الاتجاهات، فلم يرَ شيئاً، ولكنه خاف أن يُقال إنه ابن حرام، إذا أعلن أنه لم يرَ شيئاً، فأخذ يصف النسيج ويمتدح فعلَ الدرويش على كرهٍ منه، ثم عاد إلى الوزير وأخبره أن الدرويش قد صنع قماشاً ناعماً لطيفاً، ملوناً، لم يرَ أحد حتى الآن قماشاً بهذه الجودة وهذا الجمال.

سمع الوزير كل هذا المديح من التّابع، فقال في نفسه، إنه يجب أن يذهب ويتفرّج، ويستعجل الدرويش في إنجاز العمامة، وكذلك يتأكد، إن كانت أمه طاهرة الذيل شريفة أم لا!؟ وكي لا يُفاجأ في مجلس الشاه، حين يلبس العمامة الجديدة ويطلب إليه وصفها.

نهض الوزير وذهب وحيداً إلى تكيّة الدرويش، الذي قدّم له الاحترام والتّعظيم، وأخذه إلى حيث يضع نول الحياكة: نظر الوزير

وحدّق فلم يرَ شيئاً، فقال في نفسه: لقد افتضح أمري وظهر أنني ابن حرام! ومن شدة يأسه وخزيه أخذ يمدح القماش لوناً وصنعاً وشكلاً ونعومة، والدرويش سعيد لأن حيلته انطلت على الوزير، فأخذ يقول له: أنظر أيها الوزير! هذه الخطوط الحمراء والصّفراء، وهذه التوشيحات الزاهية، وهذه الأزهار المنتشرة بين الخطوط، وهذا الأخضر الزمردي هنا و...

والوزير المسكين يؤيد كلام الدرويش، وهو ساهم والألم يعصر قلبه، لأنه إن قال إنه لا يرى شيئاً، وكان هنالك في الحقيقة عمامة ونسيج سيعلم الآخرون أنه ابن حرام وسيفتضح أمره...

ثم إن الوزير الأحمق، وصف النسيج وامتدحه، ثم خرج وذهب مباشرة إلى بلاط الشاه، وشرع يصف ويتزيّد في ما رأى..

ولما سمع ناظر القصر، وأحد الوزراء الآخرين أقوال الوزير الأول، تحمّسا لرؤية العمامة العجيبة، وذهبا في صباح اليوم التالي إلى مقر الدرويش، الذي اصطحبهما إلى حيث النّول، وشرع في التعريف والوصف كالعادة، وهذان أيضاً وافقا الدرويش على أقواله خوفاً من أن يقال إنهما إبنا حرام.

بعد ذلك بأيام، وبإلحاح من الشاه، ذهب الوزير الأول إلى تكيّة الدوريش لإحضاء العمامة، وهنالك تقدّم الدرويش كمن يمسك شيئاً في يديه الاثنتين، ووضع هذا الشيء المتوهم في اللفافة، التي أحضرها الوزير معه، ثم ربط طرفي اللفافة وحمّلها لخادم الوزير الذي نقلها على يديه، ووضعها أمام الشاه: نظر الشاه فلم يرَ شيئاً: ماذا يفعل وماذا يقول؟ وهل سيترك للوزراء وأركان المملكة فرصة

يتناولون فيها أصله وفصله وشرف أمّه؟ لذلك توجّه إلى أركان دولته قائلاً: ليقلْ كل منكم ماذا أعجبه في العمامة؟

صار كل واحد يصف ما ادّعى أنه يرى بأسلوب مختلف عن الآخر، وكذلك فعل الشاه، ثم أمر أن توضع اللفافة والعمامة المتوهَّمة في داخل صندوق وقفل، ودخل مخدع أمه حزيناً متألماً متفكّراً:

ـ أريد أن أسألك يا أم سؤالاً أتمنى أن تجيبي عنه بصدق:

تعجّبت الأم من لهجة ابنها، وقالت له: اسأل؟

سأل الملك: أريدأن أعرف إذا كنتِ قد خنتِ أبي، وإذا كنت أنا ابن حرام..

قالت الأم: ما هذه الحكاية، وهذا الحديث؟ وما الذي دفعك إلى مثل هذا التساؤل؟ وما هذا الإضطراب والقلق الذي لا معنى له؟ وما الذي جرى لك؟

قال الملك: يا أم إن درويشاً حاكَ لي نسيج عمامة، يقول إن ابن الحرام لا يستطيع رؤيته، وأن أبناء الحلال وحدهم هم الذين يتمكنون من رؤيته، ولقد أحضروا العمامة إلى مجلسي، وقد استطاع جميع الحاضرين رؤيتها ووصفها، إلاّ أنا لم أرَ شيئاً، ولذلك جئت إليك لأعرف الحقيقة، أو أقتلك وأقتل نفسي.

أقسمت الأم أن أحداً من غير محارِمها لم يلمس يدها، وأنها لم تقترف الفاحشة طيلة عمرها، ثم قالت للملك: أطلب الدرويش واسأله في خلوة حقيقة أمره، فإذا اعترف بالترغيب كان به، وإلاّ فمن الواجب أن تهدّده، ليحكي لك حقيقة الأمر، لأنني أشك بمقالة الدرويش، وأعرف مكر أهل البلاط وكذبهم.

فعل الملك ما أشارت به أمه، وطلب إلى الدرويش أن يخبره الحقيقة أو يقطع رأسه!

قال الدرويش: أيها الملك، لقد قضيت أربعين سنة من عمري في السّفر، وعاشرت مختلف الأقوام والجماعات والفرق، وسحتُ في البر والبحر، ومع ذلك أنا في غاية الفقر، وأحصّل معيشتي بشقّ النفس، وصادف أن أحد تلاميذي، وهو في طريقه إلى السوق لشراء الخبز، رأى موكب جلالتكم، فتقدم وألقى على مسامعكم الشريفة عدة أبيات كان يحفظها من قصيدة طويلة لعبدكم الفقير، فتكرمتم وأمرتم بإعطائه مبلغاً من المال، ولما وصل المال إلى أيدينا، دَعَونا لكم، واشترينا طعاماً ومؤونة، كفتنا عدة أيام. عندما انتهت المؤونة قلتُ في نفسي: بما أن ولي نعمتنا، ومليكنا قد أمر لهذا التلميذ الصغير، هذا المبلغ من المال، من أجل أبيات مكسورة الوزن، فإنه سيعطيني ما يكفي حياتي كلها، إذا سمع قصيدتي العصماء، أو أنه سيأمر لي براتب سنوي...

لذلك استوقفتكم في عرض الطريق، وشرعت في قراءة القصيدة، وقبل أن أنهي قراءة أبيات معدودة منها، أمرتم جلالتكم بقتلي؛ وبما أنني يئست من الحياة، فقد خطر لي أن أطلب من الوزير أن يبقيني حياً لأنني أجيد العديد من الأعمال المفيدة، ولما كنتُ لا أجيد أي صنعة في الحقيقة، فقد قلت للوزير، إنني أستطيع نسج قماش، لم يَصنع مثله أحد، والكذبة جرّت أختها، ثم اضطررت أن أقول إن ابن الحلال يستطيع رؤية القماش، وابن الحرام لا يستطيع رؤيته، لأن كل من يُعرض عليه القماش سيدّعي رؤيته خوفاً من أن يقال إنه ابن حرام.

ـ أيها الملك! أرجو أن تعفوَ عني، لقد كان هذا القول هو الطريق

الوحيد للنجاة من الموت، وكل الذين سمعت أقوالهم ووصفهم للعمامة وللقماش كانوا يكذبون، فلا الوزير ولا الأمراء، ولا الخانات، ولا أي واحد من رجال الدولة رأى شيئاً، ولكنهم كلهم كانوا يخافون من أن يقول عنهم الآخرون إنهم أبناء حرام.

ـ أيها الملك! هذه هي حقيقة القصة، ولكم أن تأمروا بما شئتم.

بعد أن سمع الملك كلام الدرويش، عادت إليه سكينته، واطمأن خاطره، وأرسل من يحضر إليه الوزير، وبما أن الحادثة جرت في فصل الشتاء، والطقس كان شديد البرودة، والثلج يتساقط، فقد أمر الملك الوزير أن يلف القماش الذي نسجه الدرويش عمامة ويلبسها على رأسه، لم يجد الوزير المسكين حيلة، فأخذ يحرك يديه كمن يطوي منديلاً ويربطه ويسوّي أطرافه، ثم رفع يديه كمن يرفع شيئاً ثقيلاً، بعد أن رمى قبعته على الأرض، ولبس العمامة المتخيّلة مكانها، وأهل البلاط والأمراء، يراقبون ما يجري، ويعتقدون أن الوزير يربط المنديل عمامة ويضعها على رأسه، وكل واحد منهم يظنّ، أنه هو الوحيد الذي لا يرى القماش لأنه ابن حرام، ولم يدركوا حقيقة السبب الذي جعل الملك يقدّم العمامة للوزير، وإنما ظنوا أنّ ذلك كان تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً، وما دروا أن الملك بعد أن عرف سرّ القضية، أراد أن يعلم الوزير درساً ـ وهو يقف في صبّارة القرّ عاري الرأس ـ بأن يتفحّص الأمور بنفسه ولا يعتمد على أقوال أتباعه، وأن لا يصدق ما يُقال له دون تبصّر وتفكّر وتمعن ودون أدنى نظر.

ظل الوزير في البرد القارس وقتاً كادت روحه فيه أن تزهق، وهو يرتجف من شدة البرد، أما الملك فإنه بعد هذا العقاب، وبعد عتاب شديد للوزير، عزله من منصبه، وعيّن الدرويش مكانه!

ـ وهكذا أيها الفأر! ما أن يصدّق أحد الناس أقوال أدعياء التصوّف ويدخل في سلكهم، حتى يُبتلى بشطحاتهم وأكاذيبهم وخرافاتهم، ويصبح أسير الظن والوهم، لأن من المعلوم أن الأحمق الجاهل الأعمى، قليل الذوق والإحساس، لن تجلو الأسرار الإلهية صدأ عقله وشعوره، فإن كثيراً من الأشخاص، يحيون الليالي في السهر والاعتكاف، لا يحصّلون أكثر من الهم والغم والنحول واصفرار الوجه، ومع ذلك لا يُعدّون من أهل الله، وذلك لأنهم غافلون منذ البدء عن حقيقة التصوّف، واعتقادهم لا يخلو من الغش وحب الدنيا، أما الآخرون الذين يعرفون سرّ الوجود، فيستطيعون ـ حين يجعلون قائدهم الحقيقي، ومرشدهم الأول، الاخلاص لله تعالى، والتقوى وصحة المعتقد ـ الوصول إلى أعتاب الحقيقة.

ـ أيها الفأر: لدينا الكثير من هذه الحكايات، وهذه الروايات، ومن جملتها أن أحد الحمقى، لشدة غبائه وجهله، زيّن له الشيطان أن ينام في نفق ضيق مظلم، وهناك بقي مدة مخفياً عن الناس، وعندما خرج من النفق، وكي لا يقول عنه الناس إنه فاقد العقل والشعور، وخوفاً من أن يتهم بالجنون أعلن، أنه رأى في أثناء اعتكافه النبيﷺ، وأنه صلى وراءه، وأنه فتح له باب «الرموز»، وأنه بات يعرف الآن كثيراً من الأحداث التي ادعى أنها ستقع في بلاد الهند في مستقبل الأيام.

وآخر يقول إن جبرائيل عليه السلام نزل إلى الأرض وحمله إلى سدة العرش؛ كل هذا الكذب والادعاء، مثله كمثل المنديل الخيالي ذاك.

ـ الآن فهمت أيها الفأر، وعلمت أن أكثر الخلق يسلكون طريق الحيلة والمكر، من أجل تأمين معيشتهم، فيختلقون الأخبار

والقصص الكاذبة، دون رادع من دين أو من حياء، فينخدع الحمقى والجهال بهم دون حجة أو برهان.

قال الفأر: أيها الملك! لقد رويتَ الكثير من الروايات والقصص ذات المغزى، وأتمنى أن تحكي أيضاً كل ما يخطر لك من هذا القبيل، لأستمع وأستفيد.

قال القط: زعموا أن معلماً غادر مدينته ويمّم شطر الصحراء، قاصداً القرى والدّساكر، مفتشاً عن عمل يرتزق منه؛ دخل عدة قرى ومدن ولم يلق في أي منها قبولاً ولا ترحاباً، وتابع تجواله مفكراً في مآله، إلى أن وصل إلى إحدى القرى، حيث رأى جمعاً من كبار القوم يتناقشون في بعض الأمور.



المحتال والحمقى

قال المعلم في نفسه: هنا يمكن أن تجد فكرة وتحبك حيلة..

اقترب قليلاً، وحيّا المجتمعين، قائلاً لهم: أيها السادة، احمدوا الله تبارك وتعالى الذي وهبكم هذا المكان الجميلة طبيعته، الملائم مناخه، الجاري ماؤه، العليل هواؤه، وقد فضّلكم به على كثير من أهل القرى الأخرى، لصلاحكم وتقواكم.

ـ أيها السادة! لا شك عندي أن الثمار في هذه القرية زاهية الألوان، متعددة الأنواع والأشكال.

قالوا: هي كذلك!

ـ ثم إن المعلم قال: لو أن الجبل ليس موجوداً في هذا المكان، لكانت المحاصيل والثمار أوفر وأطيب، وأنا أتعجب كيف أنكم لم تعملوا على إزاحة الجبل من مكانه حتى الآن.

أثّر كلامه في الجموع، وآمنوا بضرورة زحزحة الجبل، فسألوا الرجل

عن كيفية إزالته أو زحزحته، وإذا كان يملك تصوراً أو خطة لهذا العمل، فليعرضْها عليهم ليجهدوا في تحقيقها.

قال المعلم: سأبقى في خدمتكم عدة أيام، فأنا مسافر منذ مدة من مكان إلى آخر، فلم أجدْ موضعاً بهذا الصفاء، وهذا المناخ، لقد أحببت هذا المكان وأحببتكم، وأحب أن أجد وسيلة لإزالة هذا الجبل من أجلكم.

لذا فإن سادة القوم، قرروا استضافة الرجل، فقال لنفسه: إن هؤلاء الناس سيطلبون إليك بعد عدة أيام أن تبدأ بالعمل لإزالة الجبل، يجب أن تفكّر بطريقة تبقيك عدة أيام أخر.

ومرة أخرى لجأ إلى الحيلة والمكر وفكر في خطة جديدة وقال لهم:

ـ من المؤسف أن لا يكون بينكم معلم يعلّم أولادكم، ليصبح كل واحد منهم بعد مدة عالِم عصره.

عندما سمعوا كلامه قالوا له: ليس في هذه القرية معلم، ولم يأتِ أحد إلى هذه النواحي بهذه الصفة، لِمَ لا تتكرّم أنت وتقوم بهذا العمل الخيري؟

ـ وجد الرجل أن غفلتهم تفوق تصوره، فقال: أنا في مهمة بأمر من الملك وعليَّ إنجازها...

قالوا: وما هي هذه المهمة التي أمرك الملك بإنجازها؟

قال: إنه أرسل إليَّ كتاباً وأمرني أن أشرحه له، ولذلك غادرتُ بلدي، وسافرت مفتشاً عن مكان ملائم طبيعة ومُناخاً، ينشّط الفكر، أستطيع أن أنجز فيه شرح الكتاب، ولو لم يكن الأمر

كذلك، لما غادرتُ هذا المكان، فلقد غمرتني أفضالكم وأسرتني محبّتكم.

قالوا له: ألم تقل إن هذا المكان لا نظير له حسناً وجمالاً ولطافة هواء وعذوبة ماء؟ فلتبق إذاً فتنجز الكتاب، وتعلّم أبناءنا في الوقت نفسه.

بعد أخذٍ ورد ومجاملات متبادلة، استقر الرأي أن يمكث الرجل في قريتهم ثلاث سنوات، يعلّم الأولاد ثلاثة أشهر، ويؤلف الكتاب ويفكر في طريقة إزاحة الجبل في الأشهر الباقية، وفي كل عام يقبض مبلغاً معيناً من أجل التعليم، ومبلغاً للتفكير بالطرق الناجعة لإزاحة الجبل أو اقتلاعه.

بعد هذا القرار استقرّ الرجل في القرية، وشرع في تعليم الأولاد، وكان يطلب الهدايا والهبات، وهم يعطونه ما يريد، ويتحملون طمعه وغروره وصلفه، آملين أن يريحهم من الجبل.

انقضت السنوات الثلاث ـ وكان الرجل قد جمع مبلغاً من المال لا يستهان به فجاء أهل القرية يطالبونه بإزاحة الجبل.

قال المعلم: نعم، بعد أن علّمتُ الأولاد وأنجزتُ الكتاب، يجب أن أذهب إلى الملك، وأعود ثانية إليكم إذا أبقاني الله حياً، فأنفّذ الوعد.

رفض أهل القرية الانتظار، فأمرهم المعلم أن يُحضروا ما يمتلكون في منازلهم من حبال، لربط الجبل، ولما وجدوا أن ما يمتلكوه من حبال لا يكفي، أرسل هؤلاء المغفّلون أشخاصاً اشتروا من المدينة كمية من الحبال، ربّطوها وأحاطوا بها قاعدة الجبل.

جلس المعلم وأسند ظهره إلى الجبل وقال للناس:

الآن شدوا الحبال بكل قوتكم، وعندما يُقتلع الجبل ضعوه فوق ظهري لأحمله وأرميه في مكان بعيد.

تقدم الحمقى جميعاً وقد بلغ عددهم أكثر من ثلاثمئة رجل، وشدّوا بكل قوتهم، فلم يستطيعوا اقتلاع متر واحد من الجبل، فكيف بالجبل كله.. وكرروا المحاولة دون جدوى، ولما يئسوا في النهاية قالوا: أيها الرجل الجاهل، كيف يمكننا أن نحمل الجبل؟

قال الرجل: لست أنا الجاهل، أنتم بلا عقول، لأنكم جمعتم ثلاثمئة رجل ولم تستطيعوا حمل الجبل، فكيف تتوقّعون أن أحمله وحدي؟

بعد سماعهم ما قال، صدّقوه لصِغر عقولهم، وقالوا: صحيح ما تقول، ما العمل إذاً؟

قال المعلم: اصبروا وتحمّلوا، إلى أن يأتي عددٌ آخر، يساعدونكم، وتضعونه على ظهري، لأنقله إلى مكان آخر.

وهكذا وافق أهل القرية، وأثنوا على قرار هذا المعلم الحكيم..

ـ والآن أيها الفأر: إعلم جيداً، أن كل ما وقع وما سيقع على رأسك، كان بسبب تكبّرك وعنادك وجهلك، وإلاّ فإن المتواضع، الحليم، لا يصيبه ضرر، ولا يتأذى، ويبقى سليم الروح والبدن:

إن كل ما تفعله، فلنفسك، حسناً كان أم قبيحاً

لا أحد يأخذ مكانك، فكن حذراً لمصلحتك...

حين يكون الإنسان في حالة الصحة والقوة، مع وجود النعمة وتحقق الرغبات والأماني، والتميّز من الأصدقاء، والتفوق على الأعداء، والاستقرار ورفاهية الحال، وراحة البال، ويكون مع ذلك

شاكراً صابراً، حامداً، مطلعاً على حقائق الأمور، بعيداً عن الغفلة والغرور، فهو بلا ريب سعيد، حر، وكلما تواضع وأكثر من الشكر والحمد، فإنه يبتعد دون شك عن الرذائل، ويتكىء على مسند السعادة، وإذا مارس نقيض هذه الصفات، فإنه سيمكث في مكانه حائراً مضطرباً، كما تقف أنت أيها الفأر، لا تملك القدرة على التأخر، ولا القدرة على التقدم.

حين سمع الفأر هذا الكلام المفحِم من القط، صرخ وتأوّه وبكى من العجز والضعف والخوف، وقال: أيها الملك! إذا أخطأ الأتباع فعلى الأسياد العفو حين المقدرة، وقد قيل: إن الكرم والعفو أحسن أعمال الإنسان وأفضل أفعاله.

قال القط: أيها الفأر! كأنك لم تقرأ في «گلستان سعدي»، حين يقول:

ما معنى الإحسان إلى المسيئين؟

وهل يجازى بالإساءة المحسنون؟

أيها الفأر الأحمق: إن الإحسان إلى غير أهله غباء وسفاهة.

قال الفأر: أيها الملك! من في نظرك يستحق الإحسان، ويستأهل المروءة؟

قال القط: من أخطأ بغير قصد، ثم عرف خطأه فندم، وسعى جاهداً فتدارك الموقف، وأكثر من التأسف، وطلب العفو والمغفرة، هو الذي يستحق العفو والغفران.

أما من قال ما لا يجب أن يقال، وفعل القبيح من الأفعال، تكبّراً وغروراً وعناداً وسخرية، وأظهر العداء والخصومة والعناد، ووقف على سلم الحسد والبغضاء، ثم أظهر التواضع والمسكنة والانكسار،

نفاقاً لينجي نفسه، فإن من يعفو عنه ويسامحه، يكون فاقد الشعور والإدراك، ويجب أن يُمحى اسمه من سجل العقلاء، ويكتب في سجل الحمقى، كما فعل وزير الملك الذي أرسل غلامه المملوك إلى الهند

الملك السفيه
والغلام العاقل

● زعموا أن ملكاً كان يعيش في بلاد الروم، وكان عنده غلام هندي مملوك، وكان هذا الغلام عاقلاً حادّ الذكاء، فقرر الملك أن يعطيه مبلغاً من المال ويرسله إلى الهند ليشتريَ له البضائع.

لذلك طلب إلى وزيره أن يعطيَ الغلام إثنا عشر ألفاً ذهبية، ويسجل هذا المبلغ في سجل النفقات.

أعطى الوزير الغلامَ الذهبَ بناء على أمر الملك، ولكنه كتب في السجل:

حوّلنا مبلغ إثني عشر ألفاً من حساب الملك السّفيه الجاهل، لحساب الغلام العاقل العالم، الذي أخذ المبلغ، وسافر إلى بلده الهند في التاريخ الفلاني.

في اليوم التالي حمل الوزير وصل الأمانة وسجلّ النفقات إلى الملك؛ لما رأى الملك الإيصال وقرأ المكتوب في السجل سأل وزيره:

ـ ما الذي دفعك إلى كتابة ما كتبت؟ وكيف تتهمني بالسفاهة والجهل؟

قال الوزير: أيها الملك! منتهى السفاهة والحمق أن تُعطي الغلام المملوك إثني عشر ألفاً وترسله إلى الهند، والهند موطنه الأصلي: أيعقل أن يعود ثانية إلى هنا؟ ويرجع إلى حالة العبودية؟ إنه إذا عاد يكون ناقص العقل، لأنه بدون تعب أو مشقّة ربح رأسمالاً كبيراً، يمكّنه أن يصبح في بلده حاكماً، ويقضي بقية عمره بسعادة وهناء.

قال الملك: أنا لا أشك في أنه سيعود.

قال الوزير: إذا رجع الغلام، نمحو ما كتب عن الملك، ونكتب أن الغلام هو السفيه الجاهل لأنه رجع.

خلاصة الأمر، أن الغلام ذهب إلى موطنه، وهنالك أقام واستقر، وانهمك في المسرة واللهو، ولم يفكر في العودة..

عندما وصل الخبر إلى الملك، طلب الوزير إليه، وأثنى على رأيه وعلمه، وخلع عليه الخِلع الفاخرة، وسماه «الوزير السديدُ الرأي، المفكر».

ـ أيها الفأر: أتذكر حين قلت لي: إذهب إلى مقهى الحشاشين، علّك تجد لقمة فتسرقها؟

إن الانتظار الآن يُعدّ سفاهة وجهلاً، والعطف يعد الآن حمقاً وغباء...

قال القط هذا الكلام، وهجم على الفأر فأمسكه، وأكله، وعاد إلى بيته مسرعاً...

انتهى

المراجع

أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين. ت حسن الأمين، دار التعارف، بيروت. لا ـ ت.

بهاء الدين العاملي أديباً وفقهياً وعالماً. د. دلال عباس. دار الحوار. بيروت ١٩٩٥.

تاريخ مزهنگ إيران. د. عيسى صدّيق. جاب دوم. تهران ١٣٣٨ ش، ١٩٥٩م

تشكيل شاهنشاهي صفوية: نظام الدين مجير شيباني ـ انتشارات دانشگاه تهران ١٣٤٥ ش [١٣٣٨ هـ]

الحبل المتين. **الشيخ البهائي**. منشورات مكتبة بصيرتي قم ـ ايران ـ لا ت.

روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات، الخوانساري، منشورات مكتبة، اسماعيليان إيران ١٣٩٢ هـ.

زندگاني شاه عباس أول. نصر الله فلسفي تهران ١٣٣٤ ش ١٩٥٥ م.

فزهنگ فارسي ــ د. محمد معين لغت نامه. جاب ششم ١٣٦٣ ش ١٩٦٤ م.

الكشكول ــ الشيخ البهائي ـ طبعة الأعلمي. ثلاثة أجزاء ـ ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م. ط. ٦. بيروت

كليات آثار واشعار شيخ بهائي. تقديم سعيد نفيسي - تهران ١٣٦١ ش ١٩٨٢ م.

كليات آثار وأشعار شيخ بهائي. تصحيح غلام حسين جواهري. جاب دوم ١٣٦٣ ش ١٩٨٤ كتا بفروشي محمودي - تهران.

الكنــى والألقاب، عباس القمي، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦م - ١٣٧٦ هـ.

مستدرك الوسائل للطبري. ت. آغابزرك الطهراني. منشورات المكتبة الاسلامية طهران. دار المكتبة العلمية. النجف، ١٣٨٣ هـ.